الباب الثاني

في بتر بورغ

في بتر بورغ وبيان وضعها وعرضها وطولها وطبيعة أرضها ومائها وقطرها وتحلل المياه وتجلدها، وقوة البرد فيها حتى يمكن أن تنحت أحجار من الجليد ويبنى بها وتمر العربات فوق الأنهار المتجلدة، وفيضان المياه فيها، وبيان منشأ بتر بورغ وتأسيسها، وتقدم البناء فيها، وكثرة الأشغال، وزيادة سكنى الغرباء فيها، والأهالي وصيرورتها تخت الروسيا، وتوسيع طرقها، وحسن إحكامها وتنظيمها وترقيها يوماً فيوماً إلى وقتنا هذا وفيه فصول.

الفصل الأول

/٦٠

اعلم أن بتر بورغ كلمة مركبة من كلمتين بتر يعني بطرس بانيها، وبورغ يعني بلد، أو محلة، والعامة تقول بتر وهي قصبة مملكة الروسيا المؤسسة في ١٧٠٣م، تشغل جزءاً من إينغرى القديمة، وجزءاً من كاريليا القديمة، يعني الفينلاند، موضوعة في ٦٥٩، ٣١,٥ درجة من العرض الشمالي، وفي ٣٠,٥٩ درجة من الطول من دائرة نصف النهار المأخوذة من الجزائر الخالدات في سهل متسع إلى قسم النيفا في خور فينلاند، وتمتد على الساحلين، وتشغل عدة جزائر في ذلك النهر العظيم في قبلي المدينة الغربي، وفي غربي المدينة الخور وسواحله. ومن الجوانب الأخر سهل متسع فيه قرى مخضرة مرتفعة تذهب بمسافة من المدينة إلى

ناحية الشرق، في قبلي جبال دود بروف التي سطحها يصور بثلاثين فرست من المدينة مسطحاً مستديراً باعوجاج مجرى النيفا، وبعد ٤٤ سنة من الملاحظات المتعلقة بحوادث الجو، علم أن بتر بورغ ترتفع على سطح بحر بلطيق بمقدار ٨٥٤١م أو ٥٩٦٢٩ قدماً إنكليزياً، والأرض كثيرة الجزائر، وهي عموماً دسمة ومهتزة، وتحت سطحها السبخي يوجد راق غليظ من تراب الفخار في بعض المواضع، وفي بعضها من التراب الصالح للوقود، وفي الأعلى رمل، وفي النادر حجارة، وهذا الحساب كان أول مرة سنة ١٨٢٧م، وحاسبه القولونيل ترليتسكي، حسب أيضاً أن موسقو تحت جدران كريملان ترتفع بقدر ٦٢١٨٤ على النيفا العادي، تحت قصر الشتاء، ومع أن الله تعالى أحاط بتر بورغ بالمياه الغزيرة ما حلّ بنواحيها بما هو زينة الأنهار، فالنبات فيها عموماً ضعيف، وذابل، ومن المنتقعات تنبت ٦١/ أشجار قصيرة متفرقة مثلاً، هنا محل مملوء بشجر الصفصاف وبعيداً آخر مملوء بالصنوبر أو بالقان، وهناك حور محزن أو اسفندان بورق لطيف مرتفع على أرض رطبة أو مرملة بظل قليل ضعيف، حيث خشونة الأرض الطبيعية لم تغلبها قوى الصناعة، لكن أكثر هذه المنتقعات قد طم باجتهادات الإنسان السعيدة، وانقلبت الآن إلى مروج بهية وبساتين مملوءة بالأزهار، واليوم في الأراضي المخدومة حول المدينة تبسق في كل موضع الأشجار اللطيفة وتبدو الخضرة الريانة المتكاثفة والخضارات تنجح نباتاتها للغاية في حوالي بتر بورغ، وفي سنة ١٧٧٣م اعتبر الخواجة موديل الكيماوي المشهور ماء النيفافنج من ملاحظاته، والملاحظات التي كانت قيل إنه يشتمل على جملة كثيرة من الحمض الفحمي بلا أدنى خلط معدني إلّا بملح عادي قليل جداً، بحيث لا يحس به وأيضاً ماء النيفا معروف بأنه من أصفى المياه وأنفعها لاستعمال الناس، وإن كان ماء الأنهار الصغيرة وخلجان المدينة بسبب البالوعات التي تلقى فيا وعبور السفن الكثيرة التي تأتي لتموين المدينة غالباً مكدراً ومحتوياً على بعض مواد مضرة بالصحة خصوصاً في الصيف، ففي مقابلة ذلك ماء النيفا في كل فصل شراب زلال

للسكان، عذب بارد شفاف، إلاّ أنه للغرباء مسهل أول الأمر، كما قلت في المفاخرة بينه وبين النيل مشيراً لذلك:

من قاس بالنـي نهـر نيفـا ولـم يذق حلوه وعـذبـه
عنـدي عليه دلـيل ذوق هذا شراب وذاك شَرْبـه

وقد اعتنت المملكة في كشف الوسائط الدافعة للضرر الناشيء من الخلجان، ومحيط دائرة المدينة الآن ٣٥ فرست، وسطحها ٦٢/نحو ١٨٠٠,٠٠٠ سجين مربعة، وطولها ٦ فرست من ركن حارة نارفا حيث تصب فونتانكه في النيفا إلى دير أسمولني، وعرضها ٨ فرست من الحاجز الموسقوي إلى ساحل النيفا الأيمن أمام جزيرة ابوتيكير أو جنينة الصيدلانية ونصف المدينة تقريباً محدق بالنيفا وخلجانه الأصلية، وربما محدق بمياه الخور، والباقي يطل على القرى والمدينة مكشوفة بحيث ترى من كل طرف ولها وسائط قليلة لتلطيف صعوبة هوائها الطبيعي لوضعها الشمالي، وفي قطرها الصعب يحدث في الهواء تغييرات متواترة شديدة، لكن أصل الهواء صافي والرياح مع شدتها تهب دائماً وخصوصاً من الشرق تبرد حارات بتر بورغ العريضة، وتفرق بخار البحر والأدخنة المضرة المتولدة من المنتقعات المحيطة بالمدينة، والطقس المتوسط نحو ٣,٠٩، والريح الغربي هو الغالب، والريح القبلي الغربي بسبب الغيوم والريح الشمالي الغربي مصحوب في الصيف بالصحو، وفي الشتاء بالنشوفة والبرد، ولوحظ الطقس المتوسط في سنة ١٨٣١م، ٢٩٦، وأيام الغلينى نادرة جداً، عدت في سنة ١٨٣٠، ٤٩، وفي سنة ١٨٣١م، ١٠٩، والرياح العاصفة لوحظت في سنة ١٨٣٠، ٦ مرات هبت على ٦ مرات من قبل و (١) من قبلي غربي و (١) مرة قبلي شرقي و (١) مرة من الشمال الشرقي، وفي سنة ١٨٣١م كانت الرياح العاصفة ١٥ مرة قبلي غربي، و (٢) مرة قبلي و (٥) مرة الشمالي الشرقي و (٢) غربي.

والعادة أن النيفا يتجلد في تشرين الثاني، وفي ١٧١٨م في مدة ١١٤ سنة ما

حصل إلّا ٢٤ مرة، إنه تجلد. ٢٠ و ٣١ تشرين الأول، ومرة حصل في ١٨١١م، ١٦ تشرين الأول، وفي هذه المدة بعينها ما تأخر تحلل الجليد إلّا ٦ مرات، ووقت تعويقه في التجلد كان ليلة ١٣ إلى ١٤ كانون الأول سنة ١٨٢٦م، ويمكن أن يلاحظ أن النصف الأول من نيسان وقت عادي للتحلل، وفي مدة ١١٤ سنة المذكورة لم يتحلل النيفا أبدر منها من ٢٠ آذار إلى ٣١ منه إلّا ٦ مرات، والتحلل الأعوق كان في سنة ١٨١٠م، ٣٠ نيسان، والأبدر كان في سنة ١٨٢٢م، ١٦ آذار، والعامة الذين أمثالهم في الغالب من قبيل المكاشفات خصوصاً فيما يتعلق بقطرهم يحددون تاريخ تجلد النيفا، وتحلله بهذا المثل المضاعف «أليوم مار نقوله الماء يحبس»، «وليوم مارجورج القنطرة ترتفع»، وذلك أن يوم مار نقوله صاحب الخوارق، ٦ كانون الأول، ويوم مار جورج ٢٣ نيسان، وعلى ما قلنا يعرف العادي أن في ٦ كانون الأول على الحقيقة الجمد يحبس المياه ويغطيها بالجليد، وفي ٢٣ نيسان عند التحلل ترفع القناطر التي هي من السفن الجامعة لساحلي النهر، فانظر لطول مدة البرد في هذه البلاد، وقصر مدة الربيع والصيف فيها، فهل كان هنا أبو منصور قسيم بن إبراهيم الملقب ببزرجمهر حيث قال في استطالة الشتاء واستبطاء الربيع، ما تفرد بمعناه، وأحسن كل الإحسان في التشبيه البديع:

لقد حال دون الورد برد مطاول ... كأن سُعوداً غُيبنَّ في مناحس
وحجب في الثلج الربيع وحسنه ... كما اكتن في بيض فراخ الطواوس

وعند تحلل النيفا، سكان الساحلين المتقابلين المغترقين غالباً عدة أيام بسبب صعوبة الممر يتكاثرون بغاية الغيّة والقلق على ساحل النهر كي ينظروا البعث الذي بواسطته يؤذن بالعبور.

قلت في سنة ١٨٤١م عوق جداً إلى ٨ كانون ٦٤/الأول وكدر الناس ورفعت القناطر مرات حتى كان هذا سبباً لفائدة عظيمة، وهي أن أبهة القيصر أمر ببناء قنطرة مثبتة على كل حال، وقد شرع فيها من مدة سنين، وهي الآن على طرف التمام،

حتى إنه مر عليها بعض الناس في هذه السنة في وقت هيجان النيفا للتجلد، وفي السنة الآتية تسلم للعبور لجميع الناس بعد أن يعبر عليها القيصر أول مرة. وفي وقت اضطراب النيفا بالجليد تأتي الناس أفواجاً على الساحلين للنظر وقلت:

على ظاهـــر النيفـا جليد تراكمت جنـــادلـــه ما بين مُرْغٍ ومـــزبـــدِ
فهـا هو يبكي رعـدة وترى الورى يقـــولـــون لا تهـلك أسىً وتجلَّد

وفي سنة ١٨٤٤م تحلل النيفا بسهولة عظيمة، ففي ليلة نيسان ابتدأ، وفي صبحه عبروا، والعادة أن يوضع على النيفا ألواح كالقناطر ويثبتونها لأجل العبور، ثم إذا تقوّى أزالوها، وإذا زادت قوة الجليد مشوا بالعربات.

ولما رتب بطرس الأوّل منجرة المدينة نسب لها في ١٧٣٠م النظارة على كل أبنية بتر بورغ المخصوصة ونتج من هذا أن سلوك النيفا بعد التحلل يتوقف على إذن رئيس المنجرة، وكان التكلف الذي يفعل لهذا سابقاً غير ما أمر به ٧ أيلول ١٨٣١ م، وذلك أن رئيس منجرة المدينة بإشارة لائقة من ساحل الترسانة يذهب من أمـام بيت القيصر بطرس الكبير في زورق بمدفع صغير وفيه بُندِيرة المنجرة المـذكورة إلى قلعة مار بطرس ومار بولص، وهذا الزورق يصحبه زوارق الناس الذين يريدون يحضرون التكلف، وفي ذلك الوقت بعينه يخرج من الترسانة نحو القلعة مدير أبنية وزارة البحر، وإذا كان مريضاً أو غائباً، فناظر الأشغال المذكورة ينـوبه ٦٥/في زورق بمدفع بنديرة، وعند وصول كل أمام القلعة يسلم بطلق ٧ مدافع، والقلعة ترد سلام المدير أو نائبه بعدد مساو، وسلام رئيس المنجرة بخمسة فقط، وبعد السلام ورده، يذهب حاكم القلعة منها ببندِيرة لائقة بمقامه، ورئيس المنجرة والمدير أو نائبه يذهبان لملاقاة حاكم القلعة ويخبرونه بإمكان العبور على النيفا من الطرفين، فحينئذ تذهب كل هذه الزوارق إلى مرسى القصر، يتقدم أوّلاً زورق رئيس المنجرة ويتبعه زورق المدير، ويتبعه زورق حاكم القلعة، مقدم كل الثلاثة قبل المؤخر، وإن كان الزورق القيصري وزورق رئيس الدننمـــا وزورق

وزير البحر في الترسانة، ذهبت لملاقاة حاكم القلعة، وتبعت زورقه، وإذا قرب حاكم القلعة في القصر سلم بطلق ٧ مدافع ثم يصعد حاكم القلعة والمدير والرئيس إلى القصر ويخبرون القيصر الأول بالدعاوى التي يرجع فيها إليه والإخبار أن بإمكانت العبور على النيفا من الطرفين، وعند صعود حاكم القلعة مع تبعه إلى القصر بنديرات الزوارق تجذب أيضاً وحينئذ زوارق الناس التي صحبت الموكب تذهب إلى مراسيها الصيفية، وحكم جواز النهر من ذلك الوقت الجواز والألوف من الناس التي تغطي سواحل النيفا المتخلص من غطائه البارد وطلق المدافع وشوبشة النواتية التي تنزل في النهر، والزوارق التي لا تعد ولا تحصى، التي تمخر في النهر من كل طرف، يظهر صورة موافقة لزمان بطرس الأول، الأب الشفوق على بلده الجديدة وعياله العديدة، وكم من تنظيمات فعلت على ساحل النيفا البديع مرة بعده وأي منظر وأي رونق، وأما في هذا الوقت فيذهب ٦٦/حاكم القلعة وحده في زورق ويأخذ معه حقة مملوءة من ماء النيفا إشارة إلى جواز الجواز وحينئذ يملؤها القيصر مجرات، وتطلق المدافع ويبتدىء العبور، وأمّا تجلد النيفا فليس له رسم الآن، ولكن في أيّام بطرس الكبير كان المرور على الجليد متوقفاً على مرور واحد مسخرة من القصر يمر أوّلاً على الجليد، وعليه بدلة مسخرة وخلفه بعض أشخاص بعضهم يحمل راية من القماش، والآخر بأيديهم قوس وحبال وقواديم والشاطىء الذي ترسي عليه السفن المزين الآن بحجر الصوان المحكم جداً بحيث يظهر أنه مسبوك عليه في قالب خارج عن القياس ابتدىء تثبيته في حياة بطرس في بعض مواضع بأوتاد وأخشاب وموضع المرسى العجيبة المزين بالأواني الكبيرة، كان إذ ذاك مرسى من الخشب عادي خشبي، وبعد السطر الأول من البيوت كانت العين تقضي بالحزن عن المنتقعات الواسعة، والآن تقر برؤية آثار الصنايع العجيبة والعمارات التي تنافس العمارات القديمة، ثم إن ربيع بتر بورغ المبتدأ على حساب السنة الشمسية من ٨ آذار لا يكون حقيقة إلّا في آخر نيسان، وحتى تارة في أواخر أيار وزئبق ميزان الهواء يقف تحت درجة الجليد، ومع أن حر الشمس أذهب الزحلقة

في ١٨٢٦م، حصل في بتر بورغ أمر نادر جداً، وذلك أن عربات الزحلقة ابتدأت بالسهولة في يوم الأحد عيد الفصح، لأن في أمس ذلك العيد ٢٤ آذار وقع ثلج كثير وغطى وحل الحارات، وطم حفر الماء الصغير، وكان الصرُّ ست درجات، لكن ما دام ذلك زماناً طويلاً، وعلى كل حال فالربيع لا يتخلف عن تحلل النيفا، وتحلل جليد بركة لادوغة بعده بنحو أسبوع، فأوّل فصل الربيع منوط بتحلل الجليد، وإذا تأخر ٦٧/التحليل فمرور الربيع إلى الصيف سريع جداً حتى إنه في ليلة تنمو النباتات وحينئذ الأشجار تبدأ في الاخضرار، وبعد يومين أو ثلاثة تزهو بالكلية، وحر صيف بتر بورغ لا يزيد عن حرور الصيف الجنوبي، لكن يدوم قليلاً، والهواء في هذا الفصل عرضة لكثير من التقلبات، وأعلى ما يكون الحر ٢٤ درجة، في ميزان الهواء في بتر بورغ، ومع ذلك في سنة ١٨٠٢م كان الحر في الظهر ٢٦ درجة، ٦ وفي ١٨١٢م كان ٢٧ درجة ٢، وكان في شهر تموز والزوابع والصواعق عموماً لا تمتد ولا تقوى والغيوم تتفرق بالسرعة، ونادراً فوق المدينة وأندر من ذلك تسبب الضرر عنها، وليالي بتر بورغ في الصيف لطيفة جداً، فهي لا ليل ولا نهار وإنما الدغيشة وتباشير الصباح كأنها مركبة من ظل ونور، وقلت في ذلك:

في بتر بورغ بدائع وعجائب وغرائب
فالصبح فجر صادق والليل فجر كاذب
فكأنها بضيائها الليل منها هارب

والرياح في هذا الفصل في العادة ساكنة والهواء صاف خفيف شفاف حتى يمكن القراءة في كل ساعات الليل، ففي الحقيقة بمجرد ما يسطع شفق المساء في الأفق يرى في شرق القطب تباشير الصباح ناشرة راياتها الحمر وأطول يوم في بتر بورغ ١٨ ساعة و ٢٩ دقيقة، ويبقى ٥ ساعات و ٣١ دقيقة مسافة الليل بلا ظلمة الذي نعتناه آنفاً، وإذا وقع الصوم في هذه الأيام كان عسراً، ومع ذلك فالمسلمون يصومونه، وانظر لقول أبي الغنائم الرملي، مع أنه لم ير مثل هذا الطول:

شهـر الـصـيام مبـارك ما لم يكـن في شهـر آب
/٦٨ خفـت العـذاب فصمتـه فوقعت في نفس العـذاب

والشمس في الانقلاب الصيفي تطلع في ٢ ساعة و ٤٧ دقيقة، وتغرب في ٩ ساعـات وربـع، لهـذا من أول شهـر أيار إلى أول شهـر آب لا يوقدون فوانيس الحارات، ولما رأيت أوّل مرة إيقاد تلك الفوانيس أوّل آب، وكانت كاملة الضوء وشكل مصابيحها كالهلال قلت:

لله ما أحـلى الـفـوانـيس الـتـي مصبـاحهـا يبـدو كشكـل هلال
لولا تعـددهـا لقـلـت أهـلّة لكـن أقـول إذن نجـوم ليالـي

مع أن الليل بعد لم تتكامل ظلمته بل فيه بقايا النور، وتأتي الناس بكثرة لرؤية ذلـك أول مرة ثم يتـركون. وفي هذه الأيام أوقدوا فانوساً كبيراً كالشمس لإضاءة الشـارع الكبير، ولكن إلى الآن ما حصلت نتيجتهـا المقصـودة، وهي الإنـارة الكاملة، ولا يستغرب نحو ذلك، فقد رأيت مرة في التياتر تصوير البدر والليل فقلت مورّياً:

وفي بتـر بورغ غال عقلي تياتـر نهـاراً فأضحى من صنـاعتهم ليلا
وقـد أحسنـوا تصـوير بدر بسقفـه وما صور الرحمن في أرضه أعلى

وندر تبسم الخريف، بل هو دائماً عبوس مظلم محزن بسبب أمطاره المتتابعة، والسمـاء المغطاة ببحر من الغيم السنجابي والرياح العاصفة في الجو، كل هذا يعرض النفس للحزن ويتعب ويضعف الجسم ويوحل الطرق، فأظن أن أوحالها تقصر عن أوحال نيسابور التي وصفها الأستاذ أبو نصر الأصفهاني فقال:

كيف المسير بنيسـابور في الطرق وبـيننـا أبحـر تطمـر من الليق
يا حبـذا البحـر ينجـو فيه صاحبه بالعـوم أو بركوب الفلك من غرق
ترش منـه على أثـوابنـا لمـع حتى يعـود جديد الثـوب كالخَلِقِ

كأنّمـا بطنهـا فيهـا ويابسهـا ما اسوّد وابيضّ فوق الجلد من بهق

٦٩/وفي هذا الوقت، الهدوء مضر والحركة لازمة، والريح الغربي في شهر تشرين الأول والثاني يهب بشدة، وتارة يهيج الصواعق التي تسبب بغتة فيضان المياه التي في وسطها أسست المدينة، ويبل الحارات الواطية، والصر القاسي من عيد الميلاد إلى ٢٠ كانون الثاني، حينئذ ينزل ميزان الهواء إلى ١٨ أو ٢٢، وندر جداً أسفل، وتاسع شباط سنة ١٨١٠م كان في ميزان الهواء ثلاثين تحت الصفر، وفي ٢٣ كانون الأول (١/٤ ٣١)، ومن ١٧٦٦م إلى سنة ١٧٧٠م وصل البرد إلى ٣٣، ويحسن هناك إنشاد قول أبي سعيد الآبي في وصف البرد:

في موضـع خفـيت به الـ أصـوات برداً في الـنـداء
فالـريق يجمـد في اللهـا والصـوت يجمد في الهواء
نطأ الـزجـاج من الـزجـا ج إذا مشـينـا في فضـاء
والـجـو يلمـع في نوا حيه ضريب كالـهـبـاء
وكـأنـمـا صقـلت به بيض السيوف أو المـراء
جمـدت له الصهبـاء حتّـ ـى قد أتـتـك بلا أنـاءِ
فإذا أردت خرطت مصـك من رحـيقٍ أو طلاءِ
لو عاين الـعـذرى مثـوى قد رضـيت به نواء
أو حلّه ألـهـاه عن جر الـهـوى برد الـهـواء

وليس بلازم أن تقول أن أقصر يوم في الشتاء مساوٍ لأقصر يوم في الصيف، بحيث تكون الأشغال غالبها في نور الشموع، ومع ذلك فلا يغترون عن أشغالهم، بل الأمر بالعكس ينشطون، والظلمة لا تعوق، إذ المدينة موقدة دائماً، وكذلك البيوت، وقلة الأمطار في الشتاء بسبب الصر الكالح إنما هو الثلج الذي ينزل أوّل الشتاء فيغطي الأرض ويبيضها فيتزحلق الناس في العربات وينسرون بذلك،
٧٠/وعلى الأنهار فلا يصلح في هذه البلاد قول القاضي عياض:

كأنّ نيسان أهدى من ملابسه لشهر تموز أنواعاً من الحُللِ
أو الغزالة في شمس الضحى خَرِفَت فما تفرق بين الجَدي والحَمَل

ولا قول الآخر: «وكان أبخل من تموز في المطرِ».

ولا قول:

فرأيت الحبيب شَحَّ بوصلٍ مثل ما شحَّ بالحيا تموز

إذ ليس المطر من ملابس نيسان حتى يهديها لتموز، بل الأمر بالعكس، فتموز كريم بالأمطار في هذه الديار، فيحسن فيه قول الأستاذ أبي المعمر يعمر:

والجو ما بين تسجال الغمام وتسجاع الحمام وتسجام الشآبيب
فمن هزارٍ على الأغصان مرتجز ومن رذاذٍ على الريحان مسكوب

وقد لوحظ أنه عند قرب البرد القاسي يتغطى أديم الأرض في وقته ببساط ثخين أبيض من الثلج، وتتغطى السطوح الذي غالبها أسود بالثلج، كما قلت:

وأسنمة السطوح السود حازت بياضاً حين جللها الجليد
فهل شابت من البرد الذي لا محالةَ قد يشيب به الوليد

وقلت:

انظر لأسنمة السطو ح وقد تغطت بالجليد
كبرادة من فضة نثرت على لوح حديد

وفي سنة ١٧٠٩م، وسنة ١٧٤٠م حين غطت الشتويات القاسية جداً جزائر خور البندقية بسطح قوي وكبير من الجليد، كان البرد بحسب ملاحظات العلماء نازلاً في فينيسيا إلى ٢، وفي فرانكفورت إلى ٣، وفي أوبسال إلى ١٨، وفي فيمار إلى ١١، وفي لوندرة وهامبورغ ودانتزيغ أسفل من ١٨، وفي بتر بورغ من ١٥

كانـون الثـاني إلى ١٥ آذار سنة ١٧٤٠م ما بين ٢٦، ٣١، وبملاحظات علماء الطبيعة اختبر الثلج الذي يغطي الأرض بأكثر من قدمين في العمق، وبرهنوا أن الأرض مع وجود هذا البرد ٧١/المستمر الخارج عن العادة ما تجلدت إلّا بعمق ثلاثة أقدام، ولهذا البذور وجذور الشجر ما انضرت، والصيف الذي عقب ذلك كان مخصباً للغاية، وفي كانون الثاني ١٧٤٠م بني على النيفا أمام القصر بيت من الجليد طوله ٨ سجين، وعرضه ٢ وسمكه ٣ مسقف والجدران مبنية بصخور عظيمة مكعبة من الجليد الذي صب بينها كالخافقي الماء الذي يتجلد في الحال ويلحم الصخور، وعلى السقف بنيت ممشى مربعة مزينة بكبوش مصورة، ووجه البيت مزين بأعمدة فوقها قوصرة متوجة بالتماثيل، وتحويط الباب والشبابيك الذي في غاية الذوق منقوش برخام أخضر، والشبابيك وحتى قزازها من جليد رقيق، والبيت محوط بحاجز جميل بدرابزين فيه باب كبير، وبابان صغيران، وعلى هذه الأبواب موضوع قصارى برتقان أخضر، وفي الجوانب أشجار عادية جذرها وأوراقها حتى والأغصـان الجـاثمـة عليهـا الـطيور مصنـوعة من الجليد بغاية الإتقان، وخارج الدرابزين ٦ مدافع عيار ٣ أرطال مع آلاتها من عجلة ودكة وغير ذلك، و ٢ هاون عيار ٨٠ رطـلاً، و ٢ دارفيل، وعلى يمين البيت وشماله هرمان مربعان فارغان، وفيهما في الجهات الأربع من أعلى طبقات مدورة، وعلى يمين البيت بمسافة قليلة فارسان ربعا القامة بقرب فيل كبير كالعادة فوقه فارس ثالث قائده، وعلى الشمال حمام معرق دفيء وفي عدة مرات لبعض ناس استحموا، وكل هذه الأشياء مصنوعة من الجليد المنشـور المنحـوت المصقول بغاية الاعتناء بلا خلط شيء آخر من الإجرام الجامدة، وهذه الأشياء مع اتساقها وإتقان كلها وكل جزء على حدته تتميز بهندسة دقيقة ويقضي العجب بصلابتها خصوصاً مدة الامتحانات ٧٢/المختلفة المصنوعة بحضرة القيصر وعائلته، وجملة كثيرة من الناظرين، وقد طلقت مدافع الجليد بجلة حديد ونصف رطل بارود صب بلا تعمير في القصبة، والجلل أصابوا لوحاً من الخشب ثخنه قدمان موضوع بمسافة ٦ خطوة، والأهوان المعمرة بربع رطل

بارود رمـوا البنـاء. وفي الليل الدرافيل تصب من مناخيرها من عمد عالية النفط الملتهب، والفيل يصب من خرطومه ماء بقوة بعلو ٢٤ قدماً الذي في محلها في الليل عمود نفط بتلك القوة، والماء والنفط مجلوبان من الترسانة بواسطة مجاري، وزيادة على ذلك رجل مستتر يحكي صياح الفيل بواسطة بوق موضوع في فمه، وفي الأهرام كان معلق فوانيس تهتز طول النهار، وكانت منقوشة بمائة لون وبصور غريبة ومضحكة، وفي كل هزة تظهر صورة في طبقات الأهرام تحظ السكان، وفي الليل تولع الفوانيس، وزينة هذا البيت الشتائي من داخل تقضي بالعجب أيضاً بواسطة إتقان الأشياء الجليدية الموجودة هناك ودقتها، فيدخل الإنسان بعد صعود بعض سلالم في مدخل محتو على أربعة شبابيك، وفي كل من جهتي هذا المدخل أوضـة بخمسة شبابيك بسقف تحتاني فقط، في واحدة منها سفرة الغندرة تحت مرآة، وشمعـدانات، فيها شمع يولع مدهوناً بالنفط، وساعة أواني مختلفة وجزر صغيرة وقزازات صغيرة، وفي الجدار الحاجز معلقة مرآة أخرى وفيها فرش بناموسية ومخدات وألحفة وغير ذلك، وبقرب الفرش طاقيتان وزوجان من البوابيج، وفي مدخنة مزينة بالتماثيل المجسمة، تولع قطع الجليلد المدهونة بالنفط، وفي الأوضة الأخـرى سفـرة عليهـا ساعة دقاقة، وورق حقيقي للعب ملصق بالسفرة بواسطة الجمـد، وفي الطرفين كراسي، وفي الأركان تماثيل، وهناك دولاب مزين بصور ومملوء بأواني ٧٣/ النقـل والحلاوة وصواني للشاي، وكبـايات وملاعق وأناجر مع أطعمـة وصحـون مملوءة بالفـواكه. كل هذا من الجليد مصنوع في غاية الذوق واللطف في غاية التطقيم لهذا الغرض، وهذا البيت في النهار بسبب شفافية الجليد المصقل الذي يميل لونه إلى الزرقة كأنه مبني من حجارة الياقوت الأزرق، وفي الليل الأضواء تلمع في داخله، وفي أعلى الأهرام والجدران تصير بالكلية نيران، وهذه الأنوار التي تقصر العبارة عن وصفها الساطعة على ألف زينة من الجليد تظهر للناظر المندهش صورة قصر من قصور الجن، وهذا القصر بني لأجل عرس واحد مسخرة من القصرة الملكي الذي غيّر دينه. ومعلوم أنه سكن هذا القصر مع زوجته

بعض أيام، وكان مأذوناً لكل الناس الذهاب للتفرج على هذه الأعجوبة والتحفة المرغوبة، ولكن كثرة الغاوين وازدحام المتفرجين خرج عن الحد حتى اضطر إلى تحويطه بالخشب ونصب ديدبانات عليه.

ومن ١٥ كانون الثاني إلى أوائل آذار بقي هذا البيت العجيب الساحر للب اللبيب بغاية القوة بواسطة البرد المستمر من ٢٥ درجة إلى ٣٠ درجة، وفي نصف آذار الثاني ابتدأت الحيطان في الانشقاق، وبعد ذلك بقليل تساقطت بالكلية نحو الجهة القبلية، فحينئذ خرب ونقلت صخور حيطانه بالتعظيم إلى سردابات الجليد التي في القصر، لأن في هذا الشهر تقطع صخور كالجنادل من النيفا، وتحمل إلى السرداب لتبريد المياه بجليد، والحلوى وبعض الأطعمة فتبقى إلى الشتاء، وقد صنف الخواجة كرافت أحد أعضاء أكديميا العلوم والمعاصر المعاين لذلك الزمان كتاباً وصف فيه هذه البنية العجيبة، وذكر التجربات والملاحظات التي ذكرها علماء الطبيعة في شتاء سنة ١٧٤٠م في هذه المدينة، وهذا الكتاب طبع في بتر بورغ ١٧٤١م. والآن يوضع في الشتاء تارة نحو الحافات اليمنى واليسرى من المنزل المنحدر الذي يبنى بأخشاب وألواح ثخان فوق مرسى ٧٤/ النيفا دعائم من الجليد لإمساك حائط هذا المنزل، وفي سنة ١٧٣٣م في المنزل المجاور لقصر المرمر بنى فلاح دويرة من صخور الجليد التي يغطي بردها دائم الخرق المحفور لغسل الثياب، وباب البيت وشبابيكه رميت بصناعة بواسطة كرات الثلج، وهذا يمكن أن يكون وحده المرئي من هذا النوع في بتر بورغ بعد القصر المشهور ١٧٤٠م، وقد بني في مدينة لوبك سنة ١٧٤٠م أمام باب المدينة الكبيرة برج من الجليد، وعلى المتراس ٥ مدافع، وفي الوسط سبع طوله ٧ أقدام، وهذا البرج كان محكم البناء، إلّا أنه تقليد صغير، لقصر بتر بورغ الفريد في بابه، ومن دوس المارة على النيفا يكون عليه كالتراب ويصفر، وقلت في المفاخرة بينه وبين النيل:

هيّا انظروا ما أصاب نيفا حتى غدا أصفر الإهاب

النـــيل ماء وذا تراب والمـــاء يعلو على التـراب

وقلت أيضاً:

إن قيل إن الـنـيل في المـ ـدبــه طين قذِر
فإن نيفــاكــمُ حكــى جمــوده الــشـب الــزفَــرُ
الـــنـيل عذب سائــغ وذا كطود منــقــعــر

وأمّا فيضان ماء النيفا في بتر بورغ فيقع كل خمس سنين أو ست بسبب تغيير الهواء وعصف الريح، لكن في سنة ١٧٨٨م، وفي سنة ١٨٠٢م اشتهر ذلك ففاض الماء في الحارات، ولكن هذا بالنسبة لطوفان ٧ تشرين الثاني سنة ١٨٢٤م كلا شيء، وكـان اليوم السادس كنذير الخراب، فأمطرت السماء طول النهار، وكان الـريح بارداً جداً، يهب بشـدة عظيمـة، بحيث إنه عند المساء زاد الماء جداً، والسكان الذين لم يتعودوا على هذا الفيض العميم، ولم يتصوروا أن ينشأ عنه هذه المرة من الخسارة أكثر من المرات ٧٥/ السابقة، ولو استمر الماء على الارتفاع قضوا الليلة بلا خوف، وناموا بالهدوء والسكون، وما أنشدوا قول الشاعر:

والـلـيالـي من الــزمــان حبلى مثـقــلات يلدن كل عجـيبــه

وتفكر أهل الحزم والاحتياط أن الماء في الصبح يهبط على العادة، لكن من المصيبة أن كان هذه المرة بالخلاف ـ ولله خرق العوائد ـ فهبت في الليل ريح بارد قبلي شرقي، وزاد من ساعة إلى ساعة في العصف حتى صار صاعقة، وفي الصبح اجتمـع على ساحـل النيفـا أمـام قصـر الشتـاء خلق بلاد عدد يضربون الأمواج المتصـاعدة بسبب الصواعق، وعلى وجوه الناظرين يلاحظ الحيرة والانبهات لا الهول، لأنه لا أحد إلى تلك الساعة خاف مصيبة دانية، وطامة قاصية، ثم بالسرعة تجاوز الماء الحد وبلغ ١٣ أقدام و ٧ أصابع وعبَرَ السواحل إلى الحارات من كل جهة إلا حارات قليلة، وزاد حتى عامت السفن الكبيرة في الحارات، وأرست عند

شبـابيك البيوت ومشربياتها، وقصر الشتاء كان كصخرة يتفجر منها الماء من كل طرف وتضربها الأمواج وترمي بزبدها إلى الدور الأعلى، والنيفا يغلي ويتماوج بقوة وسرعة فرّقت شمل القناطر، وشتت جمع السفن الثقيلة، وركابها رفعوا أيديهم إلى السماء منتظرين الممات قانطين من الحياة، وكثير من صخور الصوان تخلخل أو انقلب، وفي كل موضع الناس الذين يفاجأهم الماء ينطون إلى شبابيك البيوت، أو يتعلقـون بأعمـدة الفينـارات، أو بأغصان شجر البولفار، أو بأعلى العربات، والخيل هلكت وفي لبّابها العدة، والأطفال الذين ذهبوا إلى المكاتب غرقوا، فوق الماء يطفو كثير من الأمتعة التي نهبها الماء من البيوت، ومن الصلبان التي قلعها من المقابر البعيدة، والمصيبة كانت أدهى وأمر وأشأم في النواحي الموضوعة على ساحل النيفا الأيمن في الأماكن القريبة من الخور، فهناك ٧٦/علا الماء ١٦ قدماً، وهلك كثير من الناس خصوصاً في معمل الحديد، فإنه لما أخذ الماء في الفيض أُذن للشغالين بسكنى الدور الفوقاني، لكن سرعة الماء عاقتهم واضطروا لتخليص حياتهم أن يشاهدوا هلاك أموالهم وعيالهم ونسائهم بلا وسيلة للخلاص منشدين بلسان الحال:

أبـا منـذر أفـنيت فاستبْقِ بعضنـا حنـانيك بعض الشر أهونُ من بعضِ

وبعد الظهر بساعتين، حاكم المدينة ظهر في زورق باثني عشر مجدافاً في شارع نيفسكي وكثير من الناس ذهبوا في الحارات في زوارق، وبسببهم تخلص كثير من الناس، وبعد الظهر بساعتين وبعض دقائق بلغ الماء منتهاه من الفيض ثم أخذ في النضوب والفيض ذلك النهار بعينه وكل شي بلغ الحد انتهى، فما أفظع تلك الليلة الخراب والظلمة العظيمة. والاختلاط بحيث يستحيل توليع الفينارات، لأن الصاعقة كسرتها، وفي كثير من الحارات تساقط الأبنية وانشقاقها، وفي غيرها كان العبور مستحيلاً، وكم من مئات من الناس يبكون على هلاك أموالهم وغيرهم أسـوأ حالاً، منهم يبكي جيف أقـاربـه، وغيرهم محـروم من المسكن والقـوت

والملبس، يئنون على طلول بيوتهم المندرسة. وفي اليوم الثاني أخذت الرأفة قلب الكبار، وذهب ثلاثة منهم أولاً إلى بيت الحاكم وأعطوا مبلغ ٧٥٠٠٠ رُبل لحوائج المساكين اللازمة، وبيت الحاكم فتح، وصار مضيفة للناس الذين فقدوا أسباب المعيشة، وأعطي لأربعمائة عائلة وثمانين ثياباً ونقوداً للإعانة، وكان يتغذى في بيت الحاكم ويتعشى ٥٠٠ نفس كل يوم، منهم ٢٥٠ يسكنون عنده دائماً، وقسم في اليوم الأول خبزاً بأكثر من ٣٥٠٠ ربل، وفي هذه الفرصة ظهر كثير من صدقات الناس السرية الذين لا يريدون أن يظهر اسمهم لتواضعهم، وكثير من المحسنين يأتي إلى بيت الحاكم ويأخذ بعض الفقراء ٧٧/منه ويمونهم عنده سنة، والمملكة أعطت المثل على عادتها فنسيت خسارتها الخاصة واشتغلت بإنقاذ العامة وإعانتهم، فأعطى القيصر مليوني ربل ليقسم عليهم، ولأجل تسهيل وسائط الإعانة والإسعاف أمر بنصيب ثلاثة رؤساء تحت حاكم المدينة، واحد في وسيلي أستروف، وواحد في جزيرة بتر بورغ وواحد في ناحية فيبورغ، وكان القيصر يروح بنفسه لامتحان المباني المنهدمة، ويعين رعيته بالرقة والشفقة كالأب الرحيم، والملك الكريم، ورتب جمعية في وسط المدينة، وأمر أن ترسل الأدوية للمرضى في كل موضع بلا تراخ حسب أمر الحكيم، وبعد أيام قليلة من هذا الطوفان البارد جاءت الحمى الصفراوية بين أدون الناس. على أن المصيبة ليست بيضة الديك، فأرخص القيصر الملح والخبز وغيرها من الأقوات اللازمة، وفي عدة من أخطاط المدينة يقسم الخبز وغيره من الأقوات صدقة من طرف المملكة، وجلب من الريف كثيراً من الفلاحين للأشغال، أجرة الواحد عينت بربل ونصف في اليوم، وهذا السعر ارتفع بسبب الدعاوى المفرطة من الشغالين الموجودين في المدينة آخر تشرين الثاني، وصاروا لا يأخذون أقل من ستة ربلات في اليوم، وبواسطة هذه الاجتهادات زال الضنك والمرض المسببان عن هذا الحادث المنحوس، وبرحمة الله وإسعاف القيصر والمحسنين انمحى ذلك الأثر. وفي ١٥ تشرين الثاني أشهرت الصلاة لشكر الله الذي يعاقب ويعفو، ولا يستقصي في الغضب. وفي ٢٢ من ذلك

الشهر أشهرت صلاة الجنازة على كل غرقى هذا الطوفان، وثم انمحى ذلك حتى من حافظة الناس ودخل في تاريخ هذه المدينة، تذكرة للنقم والنعم، والخسارة العظمى في هذا الحادث، هي خسارة الناس، ففي المدينة وأطرافها هلك ٤٨٠ نفراً، ولا يمكن ضبط الأشياء التالفة بالتحديد بل بالتقريب، وانهدم من البيوت بالكلية ٧٨/ ٤٦٢، وتقور ٣٦٨١، وانكسرت القناطر غير الحجرية، وهلك من المواشي ٣٦٠٠، وفي سوق المتجر تلف ٣٠٠,٠٠٠ بود سكر ـ والبود أربعون رطلاً ـ ومثلها من الملح، ومن الغرقى ما يساوي أكثر من ٥٠٠,٠٠٠ ربل، ومن الدقيق ٦٠٠,٠٠٠ بود، ومن الخمر الغريب وغيره من المؤنة ونحوها ما يساوي عدة ملايين، وكان المبلغ الموزع على المصابين بهذا الحادث من طرف المملكة ومحسني الرعايا ٤٨٦,٠٦٦,٤، وهذا بقطع النظر عن الصدقات السرية الحاصلة من ناس عديدين للعيال المحتاجين، ومع وقوع الفيضان، بل الطوفان في هذه المدينة، فليس الخطر عظيماً بسبب الوسائط والاحتياطات المرتبة، وأكثر وقوع الفيضان في الشهر الأخير من الخريف، لكن في سنة ١٨٢٧م عصف ريح غربي وارتفع الماء ٢٩ ذراعاً (٤ أقدام و ١١ أصبعاً)، فكان هذا حادثاً خارقاً للعادة في مثل هذا الفصل، وأطلقت المدافع وولعت فنارات الخوف لإنذار الناس لكن ذهب ذلك الخطر من حيث أتى.

الفَصْل الثاني

اعلم أن بترـ بورغ مشبهة لحادثة من حوادث الدنيا أصلية وحكيمة أنشأتها خواطر القيصر الراسخة بلا حدّ، وأعانه على ذلك اجتهاد قومه المذعنون له بالقلب، طبعت خاتماً في صفحة الدهر لا ينمحي، وهي منشأ التجديدات الروسية، وقد بزغت بغتة في النواحي المتباعدة من الشمال مثل نجم صغير التفت نحوه كل العالم بأسره بلا إرادة، وهي التخت المزهر اللامع الريان الذي لم تذبله يد غريب متغلب، الذي له أوّل رتبة بين مدن الأوروبا بسبب تاريخه العجيب

وحسنه وتوحده في المملكة الواسعة التي قبضت بين يديها في أيامنا تخت الأوروبا. ٧٩/. بتر بورغ التي تفكرنا دائماً ببطرس الأول أصل كل ما تراه في الروسيا، ومنبع منه يغترف كل ما يفعل في المستقبل، ومن وقت ما أظهر الشمال بتر بورغ إلى الثلث الأول من القرن الثاني حصل التأسيس والزيادة والتحسينات العجيبة في هذه المدة القصيرة التي مع أنها غير مرئية في تواريخ المدن الأخر كافية لها تمشي بقدم جبار من صغرها إلى العمر المستوى، بتر بورغ مشابهة للشجعان الروس في زمن الخرافات لم تشب من سنة إلى سنة بل من ساعة إلى ساعة، وحذق مؤسسها حام على مهدها، والعقل الثابت الألمعي والجسور من أمة الروس المحلى بقوة متينة راسية لا تتزلزل، رَبّى وغذّى شجاعته الشابة، ولم تزل من يوم تجذب ملاحظات الناس المتمدنة، وهذه المدينة منبع الحمية الروسية، ولها تعلق واسع بالتجارة، وتزورها سكان المدن الأخرى غالباً، وتحتوي على أشياء لطيفة وكبيرة حقيقة، وبالنظر إلى طباع الروس وكيفية معيشتهم وقلة معرفة الأوروبا بلسانهم، وبألف سبب آخر تقتضي تبييناً كافياً وتفصيلاً وافياً فنقول:

الجهة التي رمي فيها أساس بتر بورغ في سنة ١٧٠٣ م، كانت منسوبة للروسيا في الزمن القديم، ونهر النيفا المحدق بالمدينة معروف للروس من زمن نستور، والخطان القديمان اللذان على النيفا واحد على الشمال ويسمى ناحية اينغري، والثاني على اليمين ويسمى كاريليا، كانا باسم فوتسكيا بياتينا من أعمال نوفغورد الكبرى. والقيصر إيفان الثالث في القرن الخامس عشر لما أضعف القوة الجمهورية التي كانت مزهرة في الزمان السالف أدخل في ذلك الوقت تحت قوانينه كل البلاد التي كانت تحكمها، وسواحل النيفا الذي كان مدة قرون طريقاً لنوفغورد الخارجية رأت عدة مرات الروس، وسمعت غير مرة صياحهم بالنصر قبل ١٨٠/أن ذهب بطرس الكبير لتملكها وردها إلى الروسيا. والنوفغورديون من مدة النصف الأول من القرن الثاني عشر كانوا يرسلون السفن موسوقة بالوسق المفتخر، وفي سنة ١١٤٢م فرقوا وهزموا دننما السويد التي دخلت في النيفا لتخريب اينغرى وكاريليا.

وبعد نحو مئة سنة يعني في ١٢٤١م أرسل ملك السويد أريك الكبير بحصد النوفغورديين الذين كانوا يغيرون على الفينلاند بالتوالي دنمنا كثيرة العسكر لتسخير نوفغورد، ولما جازت عمارة أريك بحر بلطيق ودخلت في النيفا، وقاطعت التيار حتى وصلت لملتقى النيفا ونهر إيزور، وصل في رأس جيش اسكندر يار وسلافيج أمير نوفغورد الذي قدسته حينئذ الكنيسة، ودعا السويد للقتال، وبعدما غرق أغلب السفن ألجأ الباقين إلى الفرار بالسرعة، وبعد ذلك النصر المشهور بخمسين سنة الذي بسببه لقب هذا الأمير نيفكسي سيمون وبوسادنيك رؤساء القوة الجمهورية في نوفغورد تسلحوا على الأبطال الحاملي السيوف الذين لا يزالون يكدرون الأرض المنسوبة إلى فوتسكيا بياتينا، وكان التلاقي عند فم النيفا وقاتلوهم ودمروهم، وبحيث أُغرقت كل مراكبهم. وقبل سنة ١٢٠٣م السويد الأعداء الزرق للنوفغورديين اجتهدوا في سد أبواب التجارة عليهم، ولهذا القصد منعوا أن تصل لهم في البحر الأسلحة وغيرها من الحديد، ولأجل أن يصلوا بالسرعة إلى مرامهم، اجتهدوا في تملك النيفا، وبنوا في سنة ١٣٠٠ م على ساحل النهر أوضة، وعلى ملتقاه مع النيفا قلعة صغيرة سموها لانديسكرون يعني «تاج الأرض»، لكن هذه الحركة ما دامت نتيجتها لأن النوفغورديين ٨١/لما فهموا الأمر جاؤوا في ربيع السنة التالية وطردوا السويد وحرقوا القلعة، ثم في سنة ١٢٢٣م لأجل التضييق على أعدائهم الحربيين في السفر من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة بنوا في المركز الذي فيه ينفصل النيفا من البركة في قرية أورخوف الحصن المسمى في هذا الوقت أرخوفة أو أرشوك المذكور كثيراً في تاريخ الروس.

ثم في سنة ١٣٤٨م ماغنوس ملك السويد لما صمم على نقل النوفغورديين إلى الدين اللاتيني هجم على اينغرى وأخذ أورشوك، واستعد للهجوم أكثر لما رأى نتيجة الظفر، لكن النوفغورديين غلبوه، وعلم أن الروس من طرف مهبطون حول دنمناه الراسية في النيفا، فالتجأ إلى تولية الأدبار بالسرعة والبداء. وفي سنة ١٤٨٧م إيفان الثالث هجم بحملة فاصلة على نوفغورد، وصار أيضاً مالكاً العمارات البحرية

التي بعد نحو قرن صارت للروس إلى الأبد. وفي سنة ١٥٨١م وسنة ١٥٨٢م القيصر إيفان الرابع الملقب بالمهدد أو المهول أشرف على ضياع أينغرى وكاريليا، وأخذ السويد نارفا، وإيفان غورد، ويام، وكربوريا أو كيكسولم وصارت في تصرفهم إلى سنة ١٥٩٠م.

وفي تلك السنة رجع الكل إلى الروس، وفي سنة ١٥٩٥م اعترف بأن الكل ما عدا نارفا منسوبة للروس بواسطة عقد (تياوزين)، وفي مدة الكدر الحاصل في فترة الروس عرض عليهم السويد أن يعاضدوهم ثم انتهزوا فرصة ابهالهم، وفهموا فحوى قول الشاعر:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

وملكوا اينغرى وكاريليا اللتين ردتا لهم في سنة ١٦١٧م بواسطة عقد سطولبون، ولما رأى السويد أنهم حكام سواحل خور فينلاند، ومجرى النيفا من كل طرف لم يريدوا أن ينتقضوا بحسن وضع ٨٢/هذا النهر، فمن سنة ١٦١١م أسسوا بناء على رأي جنرال غردبا المشهور على ملتقى أوخته على الساحل الشمالي قرب لانديسكرون، ويمكن في محله بالنفس مدينة سموها نين وبقربها قلعة صغيرة سموها نينسانتز، والروس يسمونها كانتزي، والتقارير التي كتبها غوستاف أدولف في خصوص هذه المدينة ووقعت عليهعا كريستينا دعت كثيراً من التجارأن يستوطنوها، وصارت من سنة إلى سنة أعمر وأزهر حتى صارت في سنة ١٦٩٤م مركز تجارة معتبرة بحيث ان في مدة تلك السنة أرسلت عليها ١٠٨ من السفن، وخرج منها ٨٠، لكن مع تقدم تجارة نين كان سعادتها قصيرة المدة بسبب أن في سنة ١٧٠٠م وسنة ١٧٠١م سكانها الذين كلهم بحيث تجار وعدة منهم أغنياء جداً حتى ان واحداً منهم يسمى فريزيوس سلف شارل الثاني عشر مبلغاً جسيماً، رأوا قرب الاشتغال الحربي وخافوا زحف الروس فتسللوا لواذاً في الوقت المناسب، وأقفرت بعدهم نين ونينستانتز المحروس بخفر ضعيف انقلب بوسطة عسكرية منفردة، وكان

بشير تضعضعه المستقبل في شهر تشرين الأول سنة ١٧٠٤م حرب نوتبورغ السفاكة هكذا يسمى السويد قلعة أورشك التي بناها النوفغورديون وقعقعة السلاح التي كانت مبتدأة في سنة ١٧٠٠م في حصار نارفا المنحوس على كثير من الروس، ابتدأت من جديد في سنة ١٧٠٢م على سواحل النيفا، ولما اشتهى السويد تغريق عساكر الروس التي تتماوج بالظفر بقرب دورباط، أرسلوا من بحر بلطيق إلى بركة لادوغة دوننما مخصوصة لإخراب القرى وهدم الديور الروسية المبنية على السواحل، لكن لما علم أمر كونيتشي ضابط المحل وما صاقبه، وإبراكسين مأمور هذه الناحية بظهور ٨٣/ السويد، أرسلوا ضدهم تجريد قرابة في ثلاثين سفينة، وقابلوا على البركة سفن الأعداء، وتملكوا جملة منها على كثرة المحاماة والعنادية، وأغرقوا جملة، وألجأوا الباقين إلى التحصين في جدران نوتبورغ. وفي السنة بعينها بعد مدة في شهر تموز أراد الجنرال السويدي أن يتدارك هزيمة الدننما وتقدم في رأس عرضي عديد من اينغرى إلى ثغور الروس، لكن لما هزمه ابركسين بذاته على السواحل ابرورنهر مزين بنصر اسكندر نيفسكي هرب نحو جبل دود رهوف، ومن هناك إلى نين شانتز في ٢٢ أيلول من السنة بعينها تقدم الروس إلى حوائط نوتبورغ، وفي ١٣ من الشهر التالي، دخلوها غالبين، وهجوم الشتاء عوق جري ظفرهم، والقيصر الذي كان بنفسه في العسكر بعدما سمى مينتيشيكوف المشهور حاكم القلعة المفتوحة أرسله في ذلك الخريف إلى سواحل لادوغة، وأمره أن يبني سفناً في منجرة المحل ومراكب للنقل تستعمل في الربيع الآتي لمحاصرة نين شانتز، وأخذ نوتبورغ الذي قلب اسمها بطرس إلى شليسبل بورغ يعني البلد المفتاح، فتح الطريق ليس فقط لفتح المواضع التي ترتفع عليها الآن بتر بورغ بل لفتح كل الأستوينا، والليتونيا، وجملة من الفينلاند، ولما عزم بطرس على تملك سواحل بلطيق التي كانت منتسبة للروس أمر فيلد مارشال شيريميتوف، صاري العسكر، والذي كلها في موسقو بأن يبتدأ الحرب في سنة ١٧٠٣م بالمشي نحو

شليسبل بورغ، ومنها يهجم على نينشانتز، وهذه القلعة الأخيرة التي تظهر شكلاً مخمساً مبنياً في ركن ملتقى أوخته في النيفا، كانت من قبل الحرب بين بطرس الأول، وشارل الثاني عشر محاطة من مسافة بعيدة بمتاريس وخنادق محفورة قرب ساحل النيفا، ومن جانب شليسبل بورغ وبين القلعة والأشياء المحيطة بها كانت عدة سفن منسوبة للمدينة، وباقي نين يعني الجزء الأكبر بتلة كبيرة للمرضى وكنيستين للوتر يانيتي واحدة للسويد، والثانية للنيمساويين على الشاطىء المقابل لأوخته، وكان هكذا شكل نين ونينشانتر في خريف سنة ١٧٠٢م، وحين وصل خبر أخذ نوتبورغ، هذا الخبر تفوى سريعاً بظهور تجريدة روسية أرسلها القيصر في طول النيفا من البركة إلى أوختة، ولما نظر حاكم القلعة قرب مجاورة الروس خاف على قلعته، وتحصن فيها بعدما أحرق مدينة نين التي دام اللهب يشتعل فيها مدة ثمانية وأربعين ساعة، وخوف الخفر كان له أساس، ولكن كان قبل الأوان، لأن الروس ـ كما قلنا ـ لا يهجمون قبل الربيع، ومع ذلك في مدة الشتاء بعض تجريدات مرسلة من شليسبل بورغ من طرف الضابط مينتيشيكوف، كدرت الخفراء من وقت إلى آخر، وسنة ١٧٠٣م في وقت ما سافر شيريميتوف من موسقو وتقدم مع العسكر إلى نينشانتز جاء عشرون ألف عسكري، ووصل القيصر إلى شليسبل بورغ وانتظر وصول العسكر الذي كان في ٢٢ نيسان، ومشى تحت أوامر صاري العسكر مع عسكر القبطان بمصاحبة الطوبجية الذين هم جزء من عرض بریاوبرارنسكي.

وفي ٢٥ نيسان لما كانت شيريميتوف على ١٥ فرست من نينشانتز أرسل قدامه ألفين من المشاة تحت رأسه القولونيل نيد هارت والقبطان غليبوفسكي على سفن كثيرة كانت مستعملة على لادوغة، وهذه التجريدة التي لم تكن مأمورة إلّا بكشف الموضع ٨٥/، قربت من المتراس الخارجي من غير أن يشعر بها في الليل ٢٤ أو ٢٥ وهجمت بغتة على خفر السويد وقلبتهم، وانتهزت فرصة تكدر الحراس وتملكت من أحد أبراج القلعة، وبعد مثل هذه الضربة باليد لم يبق للروس كثير

علاج على الظاهر لتملك الحصون الأخر التي يحرسها ٨٠ (ثمانون) رجلاً فقط، لكن الشجعان الذين تملكوا من البرج لما لم يكن لهم معاضد وشكوا في الظفر وتفكروا أنهم لم يؤمروا إلّا بمجرد الكشف تركوا غنيمتهم، وانصرفوا والسويد لما كان لهم وقت الإفاقة من هذا الإغماء، ونظروا إلى موضع الروس تشجعوا وأخذوا الحذر أن يهجموا مرة ثانية، وتحصنوا جداً، وضيعوا على أعدائهم جمعة زمان، ولما أعلموا شيريميتوف بهذا الخبر، تقدم بكل مساعدة في الليل ٢٥ إلى ٢٦، وطلعت الشمس على عسكر الروس وهم تحت حوائط نينشانتز، لكن محل العسكر كان عرضة لنار القلعة، لكن الغاب والأراضي السبخة وخشونة الأرض ما كان أنسب منها لمرامهم، وفي ذلك اليوم بعينه الجنرال لابيرت رئيس الأشغال الهندسية الروسية فتح الخندق بثلاثين سجيناً من القلعة، وابتدأوا في تجهيز التحصينات بصف ١٢ هاوناً و ٢٠ مدفعاً جلبت من شليسبل بورغ على السفن التي كانت مصنوعة في مدة الشتاء تحت نظارة مينتيشيكوف، وفي مدة تقدم أشغال الحصار أمر القيصر الذي هو قبطان الطبجية الخفراء كما قلنا آنفاً في ليلة ٢٨ بإنزال ٤ أرط من عرض برياوبرارنسكي، و ٤ من عرض سيمونوفسكي في ٦٠ سفينة، واقتحم بهذه الدننما النيفا الكبير غير مبال بنار القلعة المهول، لأجل أن يسد فم النيفا الذي ربما يصل منه سفن السويد لإعانة المحاصرين، والسواحل المغطاة بالغابات التي بينها تقوم الدننما.

٨٦/أظهرت لعين القيصر أرضاً وحشية لا تنعش الناس ليس فقط هذه السواحل، لكن أيضاً كل امتداد البقعة التي فيها الآن بتر بورغ ونواحيها، كان مغطى بالغابات والمنتقعات غير المطروقة هناك، وهناك يلاحظ بعض دويرات منهدمة النصف يسكنها أهالي الناحية، والصيد كان واسطة تقوتهم العادي، وكان لهم غنيمة إن جاءت سفينته من البحر لأجل أن يكونوا فيها مستعملين لأجل مقاطعة تيار النيفا، ثم إن القيصر لما أمّن سكان هذه الغابات في أنفسهم وأموالهم، ولم يلاحظ من بعيد ولا مركباً للعدو، ورجع في اليوم الثاني إلى المعسكر، وفي جزيرة

كوتويوف خلّى ثلاث سرايا من الخفر للذب عن ثغر النيفا، وفي مدة غيبة القيصر القصيرة اشغال المحاصرة تقدمت بالسرعة، وفي ٣ الظهر كل الطوبجية والمدافع المجلوبة من شليسبل بورغ كانت حاضرة لهدم أسوار القلعة، ولما علم شيريميتوف ضعف الحراس، وأراد أن يجتنب سفك الدم، عرض على حاكم القلعة شروطاً شريفة، إن ردّ القلعة بمقتضى جوابه أن يدافع إلى آخر نفس، أمر بالحملة الثقيلة بطلق كل المدافع عموماً، ورد السويد كذلك، وبعد ذلك في الساعة السابعة من المساء إلى الخامسة من الصباح، لم يكن إلاّ الإطلاق المتوال بلا أدنى انقطاع، فحينئذ فقط أحس الحراس بضعفهم عن المقاومة زمناً طويلاً، وخافوا من الهجمة القاضية، فمالوا إلى الصلح وخلّى لهم السبيل إلى فيبورغ، وكان في أيار سنة ١٧٠٣م في الساعة التاسعة من المساء أن عرض برياوبرارنسكي الذي كان فيه شاه زادة الكسي تعلم ضرب السلاح أوّلاً، دخل غالباً في قلعة نينشانتز التي في ٨٧/ذلك الوقت لا أحد حتى بطرس كان يعتبرها محلاً لأوّل عمارات، قصبة مملكة الروسيا الواسعة، وعند فرح القيصر بدخول نينشانتز في يده بلا سفك دم كثير غيّر اسمها إلى سلوتبورغ، وفي ٢ أيار الصبح أشهر النصر بشكر الله وإطلاق كل المدافع ثلاث مرات، وضرب الشنك بالبنادق، وخبر هذا الفتح وصل سريعاً إلى موسقو تخت الملوك القديم، وأشهرته بغاية التبجيل والتعظيم، ثم إن القيصر بعدما حمد الله على هذا الفتح كما قلنا، اشتغل بالنظر في القلعة والمدافع وآلات الحرب المختلفة الموجودة فيها، وعند المساء في اليوم بعينه ٢ أيار الخفر الذي خلاّه القيصر عند فم النيفا أعلم بظهور دننما السويد، وسفن الأعداء تجهل أيضاً وصول الروس إلى نينشانتز، وما توهمت بأي نوع أخذ ذلك المكان، فأطلقت مدفعين إعلاماً بقربها، ولما علم القيصر بواسطة الخفر المغلوبة أن هذه علامات الدننما استحسن أن يخليهم في طغيانهم يعمهون، وأجاب بمدفعين أطلقا من أعلى أسوار القلعة، وهذا الكيد المتضاعف نجح، ففي مساء خامس أيار أرسلت فلوكة من دننما السويد في النيفا للتفتيش على مستعملين والعسكر والنواتية

الـذين كانوا في الفلوكة كانوا بعيدين بمراحل أن يظنوا أن الروس توجد في هذه النواحي ، وأرسلوا بغير التهامل وأخذ واحد منهم ، وأخبر أن هذه الدننما تحت إدارة نائب القبطان نوميرسي الذي غلبه ابراكسين السنة السابقة في لادوغة ، وتبع الفلوكة بارجتان بعشرة مدافع فقربتا من فم النيفا ورمتا اللهب أمام مدخل النيفا في انتظار المستعملين والفجر ، ولما علم القيصر بهذه الأحوال عزم أن يغتنم الفائدة الممكنة ٨٨/من ذلـك ، فذهب في المسـاء بعينـه وأخـذ معـه مينتيشيكوف بصفة رئيس الطبجية ، وجملة من العسكر بعدما تكلم في ذلك مع فيلد ماريشال على ثلاثين سفينة إلى فم النيفا ، بقصد أن يهجم بالسرة إذا جن الليل على السفينتين المذكورتين ، والهواء الذي كان أوّلاً ساكناً ، والسماء المصحية أظهرا تسهيل قصد القيصر لكن بالسرعة عصف الـريح وهاج بقوة إلى نواحي مختلفة ثم بعد نصف الليل بدقائق غيمت السماء وأمطرت الخور والنيفا بشدة ، وكان عزم بطرس أن هذه السفن تسير بقرب سواحل جزيرة خبرفيسري المعروفة الآن بوسيلسكي أوستروف يعني جزيرة وسيلي في حماية الشجر الذي يسترها ، وأن تنقسم إلى قسمين قسم يهيج في طرف الدفة من جهة البحر ، والثاني في الجوانب من جهة ساحل الجزيرة ، والقيصر في انتظار الوقت المناسب رتب دننماه في مضيق جزيرة فيتساري بقرب المحل الذي بني فيه بعد كترينغوف ، وبعد انتظار بعض ساعات آن الوقت المناسب ، وفي وسط الظلمة وزوبعة الليل المهولة بطرس الذي كان يشتغل للروس والعرق في جبينه هجم من الطرفين ، معاقل السويد ومثل القيصر هيج الرؤساء والعسكر تحت برد من الرصاص ورش وجلل مطلوقة ليس فقط من المراكب المهجوم عليها ، لكن من باقي الدننما التي نشرت قلوعها لتلحق معركة القتال ، لكن عوقت بسبب قلة الماء ، والروس هجمـوا على سفينتي السـويد ، حيث تكشـر لهم المنايا عن أنيابها ، وما خلص السويد المحمول عليهم لا نارهم المخربة ولا اجتهادهم الناشىء عن الأياس من البخت الـذي ينتظرهم ، والقيصر هجم على السفن أوّلاً ، وفي مدة بعض دقائق تملك من السفنتين ، ومن ٧٧ رجلاً كانوا فيها٨٩/ ، وعوقب بالموت تسعة عشر

لعنـدهم، وكـل البـاقين وقعـوا في أسر الغالبين الذين أغضبوهم بطول المقاومة وقساوتها، وهذا النصر الذي هو أوّل ظفر الروس في بلطيق، والذي كان مهماً جداً أن بطرس باشـره بنفسه، وأشهره ١١ أيار في المعسكر المنظم تحت شلوتبورغ وقـرب السفينتين المجلوبتين بالـظفـر إلى أمـام القلعة، وبهذه الفرصة الجنرال غولـوقين قبطان باشا أوّل فارس نشان الحواري القديس لندري قلد بهذا النشان رؤسـاء الـظفـر والقيصـر وإشـرافـه مينتيشيكـوف، وأنعم على الضـابط والعسـاكـر الـذين هجموا كل واحد بصفيحة عليها صورة القيصر، ومكتوب فيها الذي لم يكن حاصلاً تحقق، ولما رأى بطرس نفسه مالكاً لمجرى النيفا، عزم على الذب عن مكسبه الجديد بالسلاح، وتهيئة كل الوسائط الكافية لقمع السويد، فبعد إشغال فم النيفا استشار هل يكون محل الذب قلعة شلوتبورغ أو يختار لذلك محلاً آخر أقرب إلى البحر، وبعد الحل العقد انحط الرأي على مد شلوتبورغ بسبب ضيق حدودها وقلة حصانتها، وبعدها عن فم النيفا بمسافة معتبرة بعد أن تبنى قلعة أخرى أقرب إلى البحـر، وبـطرس لأجـل اختيار محل مناسب راح في عدة من أصحاب الاعتبار والملاحظة يمتحن الجزائر المتشعبة في النيفا، وهناك سنح فكره الرأي الصائب أن يؤسس في هذا المحل المتوحد، لكن المظهر منافع عديدة، مدينة كبيرة محصنة، وأن ينعش فقراء اينغرى وكاريليا بمعيشة ناس يشتغلون بالمتجر والصنائع والفنون، ومع أن الغابات الكبيرة والأراضي السبخة الواسعة من كل طرف أدهشت القيصر لكنها لم تثنه عن إخراج مراده العظيم من القول إلى الفعل ،فاختار لبناء القلعة جزيرة واطية السطح تسمى ٩٠/اينساري يعني جزيرة المعز الموضوعة في النيفا الكبير قبـل الجزيرة المسماة اليوم بتر بورغسكي ستارنا يعني ناحية بتر بورغ القديمة، وحكى أن سلف شارل ١٢ كان أعطى لأمير من السويد الظاهر أنه الكونت سينبوك أرضاً واسعة إلى فم النيفا، وهذا الأمير المذكور لما سحره حسن هذا المكان ومنافع وضعه بنى فيه أبنية، ورتب ضيعة وأسكن فيها الهربانين، وسمى هذا الملك لوست هو لم يعني «جزيرة الحظ»، ثم بعد مضي سنتين أو ثلاثة مات جملة من سكان

الضيعة بسبب البرد في يوم من الخريف قبل ظهور الجليد، وبعد ذلك فاض الماء على السواحل وأغرق الضيعة، ولما رأى الأمير ضياع أشغاله ومصاريفه، ولم يستحسن تجديد العمارات المنهدمة وسمى الأرض التي أنعم بها عليه الملك توفليس هو لم يعني «جزيرة العفريت»، وسافر وترك القرية المنهدمة في زوايا النسيان، وهذه الحكاية من حيث إن أهل القيصر لم يقرؤها، يمكن أنها مخترعة، ومع ذلك هي مطابقة لقساوة هواء بتر بورغ الذي تذلل الآن قليلاً بسبب زيادة السكان، وتنشيف المنتقعات، وقطع الأشجار الجالبة لذلك، وعزم بطرس الكبير على تحصين جزيرة اينيساري، ويفسر اختيار أحسن بسبب أن القلعة ليست فقط محدقة بحفر عادية بل بمياه النيفا الجارية العميقة، ومن طرف الأرض صارت منيعة بسبب أن أحدقت بها المنتقعات الخطرة المغطية للمواضع المسماة من ذلك الوقت بتر بورغسكي ستارنا، وتسميها السويد كويفيساري، يعني «جزيرة القان»، وكذلك الجزائر الأُخر القريبة.

وبطرس من غير تضييع الزمان من منذ ١٦ من الشهر المذكور يوم التثليث باشر بنفسه تأسيس قلعة في الأرض، ووضع بيديه الحجر الأول ٩١/من البرج الموضوع على شمال أبواب القديس بطرس الموجودة الآن، والمطل بوجهه الشمالي على بتربورغسكي ستارنا، ولأجل تقوية تحصين القلعة أمام الحائط الملعونة ضد تيار النيفا عزم على بناء سور بصورة نصف الدائرة، وعلى جزيرة لوسينوي المسماة الآن وسيلي أوستروف في الطرف الحاد المحصور بالنيفا الصغيرة، والذي يسمى بسبب حصانته سترلكه يعني السهم، بنوا قلعة حصينة، وبعد التحصين عينت جزيرة كويفبساري قاعدة المدينة التي سماها الملك من أول وجودها سانكت بتر بورغ تفاؤلاً باسم الحواري القديس بطرس، وكان مينتيشيكوف معاون القيصر في هذا العمل مسمى حاكم المحل ورون بيك كان ناظراً، وتريزيني الذي أصله إيطالياني، ناظر الطبجية، سمي بالمعمار والعسكر الذين غلبوا نينشانتز، والذين كانوا مخيمين على سواحل الينفا العرّابة على اليمين والخيالة على الشمال، قسموا

قسمين: واحد تحت حكم الجنرال الأمير ربينين بقي في بتر بورغ، والثاني تحت حكم شيريميتوف مشى لحرب قلاع كوبور باوام الذي سبب أخذهما بحيث بلا خسارة انقياد كل اينغرى لطاعة بطرس الكبير، والقيصر في صيف هذه السنة لتفكير رجوع هذه الناحية إلى ملك الروس، رتب ألف رجل عسكراً مشاة أقوى وأحسن ما يكون، وسمى أوّلاً هذا النظام الأحسن عرضي مينتيشيكوف باسم رئيسه، ثم بعد ذلك سماه عرضي اينغرى، ومع أن هذه العرضي ينتسب بالأصالة إلى العسكر ولا إلى الخفر، له مزايا خفر القيصر، ويسكن دائماً في بتر بورغ من حيث انه كان خفراً مخصوصاً لمينتيشيكوف، وإعلاء جزيرة ايفيساري وردم المنتقعات وقطع الغابات وبناء القلعة والبيوت والأشغال الأخرى، كل هذا يقتضي أيدي كثيرة، ولهذا السبب استعمل القيصر في ذلك العساكر التي تحت إدارة الأمير ربينين، ثم أهل اينغرى وكـاريليا وناس من أولونيتز ونوفغورد، وأحضر من داخل المملكة ألوفاً من الصناع والأسـطاوات، وكذلك من القزاق والتاتار والقلمون، وأعطاهم للمساعدة أسرى السويد حتى اجتمع في ذلك الصيف ٤٠,٠٠٠ ألف رجل مختلفة الصنف واللسان للشغـل في أساس بتر بورغ، وليس للشغالين الميرية إلاّ القوت، ولكن لغيرهم زيادة على القوت كراء ثلاثة كبيك في اليوم، والكبيك عشر ربل، والكبيك في ذلك الـوقت مثل ١٥ الآن، وأغلب هذه الشغالة ما كان لهم أوّلاً لحفر الخنادق وفتح الخلجان، ورفع الشطوط وغير ذلك لا فأس ولا مجرفة ولا معزقة ولا قفة ولا عربة، بل كانوا يحملون التراب الذي يحفرونه بعصي أو بأصابعهم العريانة في أخراج أو في أيديهم أو في حجـور قفـاطينهم، وبعـد الأشغـال القاسية هكذا ينامون في الكشف في أرض رطبـة تحت الضبـاب، والغيوم المطرة، وكان يتفق لهم أيضاً مقاساة الجوع لأنه لا يسهل دائماً تحصيل المؤنة اللازمة في وقتها لأجل ٤٠,٠٠٠ رجل، لأن النواحي المحيطة بها كانت مصابة بالحروب، فلم يكن فيها كثير إعانة، والـريح المخـالف عوق سفن الفراء الآتية من داخل الروسيا على بركة لادوغة، والأقوات كانت نادرة وغالية خارجاً عن العادة، وبعد ذلك يمكن أن يتصور التعب

والاجتهاد الخارج عن العادة الذي يساوي تأسيس بتر بورغ، لكن كل ذلك مقتضى الحال إذ ذاك واعتبار راحة الروسيا بأجمعها لا يأذن بالتأخر أمام العوائق، ومع كل هذا التعب فالاجتهاد الناشىء عن حضور القيصر وعن حسن الترتيب الذي يفعله بلا انقطاع كان بحيث ان بعد مضي أسابيع عدم جملة من الغابات والمنتقعات، ٩٣/وأن في محل الدويرتين القديمتين اللتين كانتا فقط مسكن النوع الإنساني تصدى فوق الماء متاريس القلعة المهددة، ومن يوم تأسيس القلعة أراد القيصر إسراع الأشغال، فقسم النظر بين ستة أشخاص، فأخذ لنفسه قسماً، وفوض الآخر إلى الكبار الموجودين بقربه خصوصاً إلى ناريشكين وتروبتسكي وذوتوف وغولوفكين مينتيشيكوف، ولتذكار هذا الترتيب سميت الأبراج باسم النظام مبتدئة بالبرج الذي على يمين باب ماربطرس الذي سمي باسم «القيصر»، وفي مدة الأشغال أشهر بطرس عيداً اسمه ٢٩ حزيران، وعمل مينتيشيكوف للقيصر وللكبار وليمة مفتخرة في المحل الذي بناه في البرج المسمى باسمه، وما كان الباعث لبطرس على بناء هذه المدينة حسن وضعها فقط، بل صلاحية الموضع بالسهولة التامة لدننما تدخل وتخرج وترسي، وبطرس الذي علم بالتجربة بسبب خيبة محاصرة أزوف سنة ١٦٩٥م كييف نفع دننما في حرب البحر عرف من أول وهلة أن فم النيفا يلزم أن يكون للروسيا مفيداً، وما زال مسدوداً وما استراح حتى كمل قصده، وذلك انه لما أحدر من النيفا إلى البحر اشتاق أن يعرف عرفاناً كاملاً جريان هذا النهر العظيم، وفي واحدة من سفراته رأى بغتة على فم النيفا عدة جزائر تصلح بغاية اللياقة أن يكون ميناء للمراكب التجارية، وهذه الجزائر كانت مسكن فقراء صيادين، وكانت لطيفة المنظر، وتصور بنفسها مفتاح النهر، وفي الدخول في هذا الموضوع يلزم الروس أن تتحصن بالضرورة، وبطرس فهم بالسرعة كل منافع وضع هذه الجزائر بغاية المناسبة بفكره الحاد، ونظره الثاقب، فعزم أن يبني ذلك مدينة، وأخذ في الأشغال بعزمه الماضي غي منتظر عقد الصلح وغير مبال بصعوبة فيضان المياه، وبينما يرن خبط الفؤوس في هذه المواضع الساكنة، ما سكت السويد على نظر

هذا، ٩٤/بـل جردوا عساكر ١٢٠٠ من فيبورغ أوائل تموز تحت نظارة الجنرال كرونيورت الـذي كان بعينه في سنة ١٧٠٢م في حرب مع ابركسين لهدم الأبنية المبتدأة، لكن القيصر لما علم الخطر في الوقت خرج من بتر بورغ مع أورطتين من الخفر، وأربعة أرط من العسكر، وهذه العساكر لما لاحظت في ٩ تموز العدو من الساحل الآخر من نهر سيسترا، عبرت عبوراً صعباً بمرأى منه، وهجمت عليه بشدة، والسويد مع متانة ملجأهم في أشجار غلب، غلبوا واضطروا إلى الرجوع إلى فيبـورغ بعـدمـا عدموا كثيراً من أمتعتهم ومدافعهم، وبواسطة زيادة الشغالة االمتكاثرة كل يوم في بتر بورغ، فرغ بناء القلعة في آخر الشهر الرابع، وفي الداخل في طول الجزيرة فحر خندق لئلا يتعرض لفقد الماء خصوصاً في حالة الحصار لو فرض، وعلى ساحلي هذا الخندق بنيت أربعة صفوف من البيوت مسقفة على عادة الفينوانيين بالعشب أو بقشر شجر القان، وعلى الشط الجنوبي رفعت كنيسة من الخشب نقشهـا يحكى الـرخـام الأصفـر باسم الحـواري ماربطرس، والحواري ماربـولص، وهـذه الكنيسة كان لها ثلاثة أهلّة في أعلاها، وأيام الأحد والأعياد يرفعـون في قلب المـراكب، وفي أحد هذه الأهلة معلق ناقوس يضربون به في ساعات الليل والنهار، وفي الساحل الآخر من النهر أمام باب الكنيسة الشمالي بيت صغير لحاكم القلعة من دور واحد وبقربه بيوت ضباط الخفر، وفي قبلي الكنيسة في محل بيت حاكم القلعة كان بيت كبير كعسكر الخفر مع فسحة أمامه، وهذه الفسحـة كانت تسمى «محل الرقص» بسبب حصان خشب يظهر حاد، وصاري محفـوف بأوتـاد مذبـذبـة، وعلى الحصان يوضع العسكري المُذَنّب ذنْباً عظيماً مفرشحاً وعلى الصاري واقفاً، وهذه الجرسة كانت موافقة ٩٥/لعادة ذلك الوقت، وبقـرب بيت العسكـر بيت خشب منقـوش بكيفية نقش الكنيسـة عين أن يكون الترسخانة، وفي البيوت الأخر كان مسكن قسس كنيسة ماربطرس وبولص وكنيسة اللوتيريانيين ونوابهم وكونسلارية «الخفر ومخازن الأقوات». وفي برج مينتيشيكوف بيت لطيف صغير كان معداً للعقاقير والأدوية الميرية، وبابه الموضوع في الجدار

بين برج القيصر وبرج مينتيشيكوف يوصل إلى قنطرة خشب يمكن رفعها وإلى فرجة بين القلعة وجزيرة كويفي التي صارت جزيرة بتر بورغ، وكل يوم من وقت أن تدق الطرنبيطة لإيقاظ العسكر حتى تدق لانصرافهم بنديرة القيصر تتهادى على برجه، وأيّام الأعياد والمواسم العظيمة ينشر العلم الذي بصورة نسر برأسين ماسكاً بمخله وبمنقاره على أربعة بحور، البحر الأبيض، والبحر الأسود، وبحر كيلان، وبحر بلطيق، ونشر البنديرة أو طيها علامة على ابتداء أشغال المدينة أو تمامها وإطلاق مدفع يدل على هاتين الحالتين.

وفي الساعة الحادية عشرة يطلق مدفع للغداء، وحيث كانت جزيرة اينيساري محفوفة بحيطان قوية، أراد القيصر أن يكون قريباً من القلعة بقدر الإمكان ليمتحن الأشغال غالباً، فبنى في جزيرة بتر بورغ بقرب الساحل النيفا الكبير بنحو مائتي سجين من برجه في محل كان في حكم السويد دويرة صياد بيتاً من الخشب عرضه ثمانية سجين وسمكه ثلاثة، ومجدد الروسيا لما كان عدواً للترفه والتزايد أعطى لنفسه مثل القناعة، وسكن في أوضتين بينهما مدخل ومطبخ والكل مدهون بلون أحمر مخطط بالأبيض على ذوق الهولانديين، لأجل أن يظهر حيطاناً من الآجر المكشوف، وفي الداخل مزين بقماش غليظ ملون بالبياض، وأثاث البيت موافق لبساطته، وفي وسط السقف يرى هاون، ٩٦/وفي كل ركن بنية جاهزة للطلق، وهذه الأشياء الثلاثة كانت مصنوعة من الخشب المصور، وهذا كان أول قصر لبطرس الكبير في بتر بورغ، وما كان في ذلك المسكن الوضيع إلّا جليلاً ورفيعاً، وبنى مينتشيكوف محبة الرفعة والفخر أمام دويرة القصر بيتاً من الخشب أيضاً، لكنه واسع، وفيه تشتهر الأعياد ويلاقي القيصر بسبب صغر بيته، وهذان البيتان مع الخيام والأخصاص المبنية هنا وهناك بلا نظام لأجل كنّ الشغالين في جزيرة بتر بورغ مدة الشتاء، نصبت كل المدينة المولودة في ١٧٠٢م وبطرس لما رمى أساس مدينته، ورأى إمكان تحصيل دننما، سافر أوّل تشرين أوّل إلى «لادينوي يوله» الذي سماها «منجرة أولونيتنز»، وابتدأ فيها ببناء ٦ فرقيطان و ٩ قبقات، ثم رجع

إلى بتر بورغ في الفرقيطة المسماة «ايتاندار» التي أنزلها من المنجرة نفسها والمصحوبة بست قنج جديدة أيضاً، وفي مسافة الطريق بسبب الريح العاصفة الشديدة لبخت الفرقيطة في الرمل، وحصل فيها عوار أصلح عند وصولها، وهذه أول مرة أن مركب حرب من هذا الجنس تقوم على ماء النيفا وتعمر على سواحله، والقلق الذي كان يجده القيصر لتكميل دننما في بحر بلطيق بعثه في تلك السنة بعينها سنة ١٧٠٣م أن يبني في خط نوفغورد، وفي ملتقى نهر كياس منجرة جديدة خرج فيها من الخريف ٣ قبقات، وإلى مبلغ ٣٠٠ مركب مختلفة وغراب للنقل وأكثرها بناها الأوسط جبريل مينتيشيكوف، الذي تعلم السفانة مع القيصر في هولاند، وقلة الملاحين عطلت بطرس، لكنه اجتث هذا العائق بأن دعا إلى خدمته ضابطاً من هولاند ومن البندقية، ومن بلاد مسكونة بأمم أصلهم من الصقلب ٩٧/خصوصاً من سواحل البندقية، ثم أخذ لتكميل ذلك عدة من النواتية الغرباء الموجودين في السفن الواردة إلى ارخانكيل، ولما علم القيصر بعد رجوعه إلى بتر بورغ بسفر دننما القبطان «نومير» التي كانت مدة الصيف في القرصنة أمام فم النيفا إلى فيبورغ لتقضي فيها الشتاء، سافر مع أن خور الفينلاند ابتدأ في التجلد قنجة واحد إلى جزيرة ريتساري الضيقة الطويلة المعروفة بين الروس من زمان طويل باسم كوتلين، والموضوعة على ٣ فرست من بتر بورغ وسبر الجزيرة وقاس مشعبها، وبعدما امتحنها بإمعان النظر عزم على تحصينها، وذلك أنه لما رأى أساس مدينة يلزم أن يجعلها في ملجأ من فتكات الأعداء الذين هم أيضاً ملاك البحر، ورجع القيصر إلى بتر بورغ وقلبه مشغول بهذا الفكر، وكان خلّى في الجزيرة مينتيشيكوف مع ٤ أورط، وقسم على الأخر مساكن للشتاء في الأخطاط المجاورة، وسافر إلى موسقو بعدما حصن أسوار القلعة بعدة ٣٠٠ مدفع من النحاس، والسبع معادن كلها تقريباً مغتنمة من السويد، وقبل سفر القيصر إلى موسقو أبطل عادة مستعملة في الروسيا منذ عدة قرون، وذلك السجود للقيصر كلما يلاقي، وهذه العادة التي يمكن أن أصلها من وقت حكم المنغول كانت مكروهة جداً لبطرس خصوصاً في وسط

الوحل، والمنتقعات، فلذلك حرّج على فعلها، والعامة المتعودون كل الأزمان على هذه التحية لشخص الملك شق عليهم الترك، وكثير من الناس إذا رأوا القيصر يخرون سجوداً بلا إرادة، وتأبى الطباع على الناقل، وهذا ألجأ القيصر إلى التهديد والعقاب الأليم لكل من يتجاسر من الآن وما بعد أن يفتأت عليه، ويخالف ما تقدم إليه، وبعد سفر القيصر ببعض أيام، وصلت بتر بورغ أوّل مرة بعد تأسيسها سفينة من هولانـدا، رئيس هذه السفينـة كان يجيء كل سنـة إلى خور فينـلاند، حيث ٩٨/كان السويد حاكم البلاد يقطع أخشاب العمارة على سواحل نهر سيسترا حيث الآن «سيستررورسك» و «سيستربيك»، ووصل لهذا الغرض بعد وضع أساس قلعة بتر بورغ بأسبوعين أو ثلاثة، ويتبعه اثنا عشر مركباً تجارية، لكن لما علم الأخبار المعروفة بها خصوص (دننما) القبطان نوميرسي التي عاقت هذه المراكب عزم أن يروح لمقـابلة القيصـر لالتماس إذنه في الاستمرار على قطع الخشب، لكن لما وصـل كان القيصر وحاكم البلد غائبين منذ أيام، وراح يام وكوريا اللتين ضمّنهما شيريميتوف ولم يقدر أن يرى القيصر، لكن لما سمع برجوع الحاكم جوزي ليس فقط بالإذن في قطع الشجر من المحل المذكور، بل بحثه أن يجلب إلى بتر بورغ السفن المـوسـوقـة بالبضائع والرئيس لما انسحر بهذا القبول لحق سفنه وأراد أن يدخل النيفا، لكن لما لم يقدر أن ينال إذن نوميرسي الذي يخاف أن الروس تتنبه لتسليح سفن هولانـد وتتقوى بها عليه، قال له أن يقضي الليل مع ست من سفنه خلال دننما السويد، ويصل إلى نهر سيسترا على السواحل التي فيها بعض عراض روس، من وقت هزيمة الجنرال كرونيورت، ووصلت واحدة من هذه السفن إلى بتر بورغ في تشـرين الثـاني لمـا وجـدت بغتة بعيدة من دننما نوميرسي، وكان النيفا والخـور إذ ذاك عاريين من الجليد، والسفينـة موسـوقـة ملحـاً وخمـراً، فقـابـل مينتيشيكـوف الـذي يفهم مقاصد سيده السديدة ويحصلها بالهمة العتيدة الرئيس بغاية البِشر والبشاشة، ونهاية الطلاقة والهشاشة، ودعاه إلى طعامه المفتخر وأهدى له خمسمائة مجر، وأعطى لكل نوتي ثلاثمائة قطعة، واشترى كل وسق السفينة ثم

وعد أن يهدي لرئيس المركب الثاني التي تجيء بتر بورغ ثلثمائة مجر، ولرئيس ٩٩/ الثالثة مئة وخمسين. ومع توارد الأشغال والدواعي المقتضية ليس فقط لالتفات القيصر، بل لحضوره أيضاً كان محط نظره تحصين بتر بورغ بحيث يظهر أنه صرف فيه كل اعتنائه واجتهاده آمراً مشافهة إن كان حاضراً، وبالكتابة إن كان غائباً:

اعـلمـوا أنـي لكـم حافظ شاهـداً ما كنـت أو غائـبـا

وبينما كان يخترع الأشياء النافعة لإصلاح داخل المملكة كان يربط التعلقات الخارجية، ويستعد لحرب تكون قبل الربيع ويترك سفناً وغلايين من كل نوع إلى نهر دونا، وبمجرد ما وصل من موسقو إلى فوروثيج أرسل إلى ميتيشيكوف، أن يحصن جزيرة كوتلين، وهـذا القصـد إذا فعـل قبلي الجزيرة خصوصاً من جهة المشعب لا يخاف من تقدم سفن الأعداء إلى بتر بورغ ومينتيشيكوف لما وصله الأمر سارع إلى الجزيرة وبنى فيها لتحصينها قلعة خارجة عن العادة، قليلة النظير، وكل المـواد الـلازمـة للعمارة وصلت من بتر بورغ على الجليد بحسب أوامر الحاكم والأشغـال في وقت واحـد تقـدمت وحصلت بالاجتهـاد بعينه والسرعة بعينها في الصيف بحيث إنه عن قريب ارتفع فوق قفر جليد خور فينلاند على لسان الأرض الذي وصفناه دائرة من الخشب أو حصن من ثلاثة أدوار، وأرض كديدبان مهول مهدد حارس على مدخل مشعب النيفا، وأساس هذا الحصن صناديق من الخشب مملوءة بحجارة وملقاة في قعر الماء، ومع صعوبة البرد المتتابع كان في هذا الشغل عدة آلاف من الشغالة بعضهم في البناء وبعضهم في نقل المواد، وهلك ثمانية آلاف فرس بعدم الزاد وبالعنت، وهلك أيضاً كثير من الناس، وهذا كان قرباناً لازماً لحفظ بتر بورغ التي حققت فتوحات بطرس المستقبلة في الدننما وسواحل بلطيق، وقبل تحلل النيفا كملت الأجزاء الأصلية من الجصن ١٠٠/ والقصبة المولودة كانت في حصن من جهـة البحـر، وصـارت السكان كل يوم تزيد زيادة على الروس، كالتجـار الآتين من نوفغـورد بالغـربـاء من الأستونيا والليتونيا، وحتى من السويد المسـاكين الـذين حرمـوا بسبب الحـرب من المسكن ومن الصناع والأسطاوات

والنواتية الذين جاؤوا أفواجاً بعيالهم، وتركوا أوطانهم، والتاتار والقلموق المدعومين من بعيد لأشغال القلعة بقوا بكثرة في المدينة واكتسبوا زيادة على القوت ما قدروا به على بناء البيوت، وبهذه المثابة عمرت المدينة وصارت منيعة حصينة، وفرغت المنجرة في أقل من سنة، وهذه المنجرة ما كانت مشتملة في ذلك الوقت إلّا على عشرة خطوط، والخط المحلي الذي فيه تبنى السفينة، وعند رجوع القيصر من موسقو شاهد عدم انتظار وضع البيوت، فأمر أن تجعل الحارات معتدلة، وفي هذا الوقت ما أوسع حارات المدينة وأعدلها وألطفها وأجملها، لم تزل ساحرة لعيون النظار خصوصاً سياح الأقطار وأصحاب الأسفار الذين تروق أعينهم هذه الآثار.

وفي سنة ١٧٠٦م فاض النيفا، ومع أن الفيضان ما مكث إلّا ثلاث ساعات سبّب الخراب بسبب أن البيوت كانت حينئذ واطية، فطغى عليها الماء، فصارت جارية لا تحمل السكان، ولم يجد الأهالي عاصماً من الماء إلّا الركوب في السفن، كما تداوى شارب الخمر بالخمر، ومع وقوع الحريقة التي اجتثت عدة بيوت عظيمة من الأساس سنة ١٧٠٧م، كان وجود القيصر كالجود، فأطفأ النار حتى صارت برداً وسلاماً، وتلافى التلف الذي تسامى، وفي سنة ١٧٠٨م، يعني خمس سنين من تأسيس المدينة استحقت بتر بورغ أن تسمى ١٠١/مدينة أوروبية، واشتغل السكان الذين أكثرهم غرباء بأجور المعاش وغيره مثل غيرهم:

واتخذ الناس كلهم سكنا ... ومثل الأرض كلها دارا

ولما رأى القيصر نتيجة غراسه، وقوة بأسه، اشتهى أن يري ذلك لأناسه، فعزم عائلته من موسقو لرؤية مدينته الجديدة، عروس المدن التي ما رأوها بعد، وإنما سمعوا عنها، وليس الخبر كالعيان:

ولكن للعيان لطيف معنى ... به سأل المعاينة الكليم

وقد حصل في موسقو إذ ذاك بعض تنقلات أوروبية وتغيرات تمدنيه، ولكن

العوائد القديمة باقية إلى الآن عموماً، وذهب القيصر للقاء عائلته الملكية من مسافة ٨ فرست، ودخل معهم بموكب عظيم في شليسبل بورغ، ومن هناك بعد خمسة أيام نزل القيصر معهم في السفن التي جاؤوا فيها والمزينة بالبنديرات، وتوجهوا إلى بتر بورغ ولاقاهم قبطان باشا ابراكسين من مسافة ٤ فرست في زورق، وسلم عليهم بإطلاق المدافع، وعند وصول هؤلاء الفخام والكبراء العظام إلى بتر بورغ، سلمت عليهم القلعة بالمدافع، ونزلوا بيت مينتشيكوف، وفرّجهم القيصر على المدينة، وما فيها من الأبنية المتينة، وقادهم إلى كرونسلوت ثلاثة أيام، ومع فرح القيصر بحضورهم أشد الفرح واعتنائه بحظهم وسرورهم ما عاقت الأشغال ولا فترت الأعمال بل زادت الفتكات في نواحي البلاد، وحامت العقبان على بلاد الفينلاند فأرسل القيصر من كرونسلوت إلى بورغو على ساحل خورفينلاد الكونت بونريرس ورجع بالظفر مع وجود دننما السويد في فيبورغ، ثم رجع ذلك الكونت المذكور لتخريب قرى السويد التي على جزائر بيريسوفيا وعلى نواحي ١٠٢/فيبورغ فجعجع بها، لكن السويد مع هذا كانوا دائماً عازمين على التألب والتجيش لأخذ بتر بورغ والانتقام من أعدائهم القاهرين، فأرسل شارل ١٢ سنة ١٧٠٧م الجنرال لوبيكر بعسكر جرار (١٤٠٠٠)، ولما علم بطرس ترك مدينته الجديدة وذهبت عائلته إلى موسقو، وصار الناس بين الرجاء والخوف، وكثير من شون الغلال نقل إلى القلعة، وتقدم لوبيكر بوطأة عظيمة وحملة جسيمة وقطع العقبات واقتحم الصعوبات حتى تملك من ساحل النيفا الشمالي، لكن بسعد المدينة غلط لوبيكر غلطاً عظيماً أدى إلى هلاك جيشه حيث دخل في بلاد اينغرى المقفرة المغطاة بالغابات والمنتقعات ظاناً أن يجد القوت الكافي لعسكره، فخاب ظنه وعاد وبال غلطه عليه (خطأ الطبيب إصابة الأقدار). ومع أنه غلب أولاً عدوه فقد وجد عدواً قاهراً لا يُعامل:

وأنفس خطبك الذي لا تناله وأنكى عدويك الذي لا تقابله

وهو البرد والجوع الخارج عن العادة، المتعدي حتى إلى الضباط الذين ذبحوا الخيول وأكلوها، وهذا الجنرال لم يتقدم إلى بتر بورغ، بل توغل في بلاد اينغرى المسكونة ليجد فيها قوت العسكر، لكن ما كان العود أحمد، لأن القوزاق بأمر ابراكسين حرقوا هذه القرى ليسدوا على العدو طريق الخلاص، ففر ولات حين مناص، وأخذ الروس يقتلون السويد ويقولون لنار غضبهم: هل امتلأتِ؟ وتقول: هل من مزيد؟ فكانت هذه المصيبة لهم فائدة قشيبة، بذا قضت الأيام بين أهلها، (مصائب قومٍ عند قومٍ فوائد)، ولم يكن ملجأ السويد إلّا البحر الغضبان المتماوج، كثير الصواعق، ففر من فر، واختار صاعقة البحار ولا صاعقة العدو الأمرّ. ١٠٣/لكن اختلاف الرياح أذن للروس بالإرباع، وعاق السويد عن ركوب البحر، وأرسل ابراكسين خلفهم، ولحقت عساكره أورطتين من السويد لما نزلوا السفن فاستأصلوها:

رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاءٍ مِن نبالِ
فكنت إذا أصابتني سهامٌ ... تكسرت النصال على النصالِ

وهكذا فرغت غزوة لوبيكر المهولة على بتر بورغ أوّلاً ثم آخراً على السويد، فعاد كيدهم في نحرهم، وباؤوا بمكرهم، ومع أنهم أرهبوا المدينة وأضروا بها على الحقيقة، فقد جعلوها في حماية منهم حيث أيسوا من التطلع لها، ولما أحدثت هذه الحرب خراب نواحي المدينة وإحراقها، أراد القيصر أن يتلافى التلف، ويعمر هذه النواحي بالروس الأصلية، فاستحسن أن يقسم الأراضي، فأقطع لزوجته خمس ضياع، ولشاه زادة ولده الكسي بعض ضياع، وكذلك لشاه زادة أخته نتاليا، وأيضاً أقطع بعض الناس، وكان أكثر الناس إقطاعاً مينتيشيكوف، فإنه أخذ جزءاً من أحد عشر جزءاً من بلاد اينغرى، وقسمت الروسيا أوّل مرة إلى ولايات ١٨ كانون الأول سنة ١٧٠٨م. وجعلت بتر بورغ رأس ولاية اينغرى المشتملة على ٣٢ مدينة.

وفي سنة ١٧٠٩م، لما تمكن بطرس من بلاد اينغرى أمر أن تسكن الوزراء والكبراء في بتر بورغ، ومن ذلك الوقت صارت تخت المملكة، وسفراؤه أخبروا أنه بنى مدينة على الماء كل يوم تزيد، ورغّبوا بكل وجه السياحين والتجار، وعقدوا التجارة مع فرانسا وأعلموا إيطاليا أنها إذا توالت سفنها التجارية إلى بتر بورغ لا تدفع إلّا نصف المكس، وأراد أن يسلك سبيلاً للتجارة داخل المملكة، وأرسل لكشف الطرق البحرية لكن ما حصل مانع فترك وفي ١٠٤/ ١٧٠٩م، ٣٠ تشرين الثاني أشهر عيد نشانة مارأندريا، وعملت ضيافة كبيرة عند مينتيشيكوف، حضرها الوزراء والكبراء والضباط البحرية وغيرهم، وفي الليل عملت حريقة عجيبة الشكل، صُورت فيها صور مناسبة لوقائع السنة، وفي الآخر حمالة كبيرة معلق فيها هذا النشان. وهذا اللعب سَرّ الناظرين وأعجبهم حيث إن أغلبهم ما رأى هذا النوع البديع، إذ من المعلوم أن الحريقة من الأشياء التي ما رؤيت قبل بطرس في الروسيا.

وفي ٦ كانون الأول في الترسانة بمرأى محفل عظيم من المتفرجين ابتدأ بيده بناء بارجة وسماها «بولتافا» بأربعة وعشرين مدفعاً.

وفي سنة ١٧١٠م أرسل هذا العنقاء ابراكسين لحصار فيبورغ مرة ثانية، لأن المرة الأولى الواقعة في سنة ١٧٠٦م ما أنتجت، وذلك أن الجنرال لوبيكر لما لم يتفكر أن الروس يتعدون الحدود إلى محاصرة محله، توغل بعساكره في الفينلاند في المساكن الأحاسن، فاغتنم الروسيا هذه الفرصة وحاصروا المدينة، وكان مع ابراكسين ٥٠٠٠ رجل، و ١٠ مدافع بثقل ١٢ و١٣ هاون، وذهب على الجليد ١٥ آذار، ووصل إلى القلعة وتمكن من برج بواسطته قطع على المحاصرين كل وسائط الذهاب والتردد إلى داخل الفينلاند، وأطلقوا عليهم النيران، وعكسوا عليهم النيران حتى رأوا الأياس، لكن المحاصرين كانوا مضطرين إلى المدد من بتر بورغ، وما كان معهم بعد ذلك إلّا زاد ثلاثة أيام، والجليد لا يمكن العبور عليه في ذلك الوقت

الذي هو وقت التحلل، فما أشد فرح ابراكسين حين رأى ٩ أيار المدد الذي حمل له الزاد والمدافع والجيوش، وهذا المذد من أعجب ما يحفظ في التاريخ، ويدل على التمدن النير الذي لمع في الروسيا بواسطة ركن كوكبها الثاقب، وجعلها بين أخواتها في أعلى المراتب، وذلك أن القيصر ١٠٥/لما علم احتياج التجريدة التي أرسلها للحصار أرسل في وقت تحلل النيفا ٢٥ نيسان الدننما التي قضت الشتاء في بتـر بورغ، وأرسل مراكب قلعية تحت إدارة كرويس، ومراكب طويلة تحت إدارة بوتزي، وفي هذه السفن ١٠,٠٠٠، فتقدم في رأس الدننما ٧ فارقيطات كل واحدة فيها ٢٤ مدفعاً، وفي وسطها بنديرة كرويس، لكن الجليد عاق عبور الدننما وظهر استحالة الوصول إلى فيبورغ، وبطرس طلّاع الثنايا، ومقتحم المنايا دائماً يستسهل الصعب ويستهـون الخطب، تفكر في استنباط طريق لإزالة وعر هذه الطريق بعد طول المغـافـرة وشـدة المعـاقرة، وانحط الأمر على رأي القيصر أن يتقدم السفن صادمـة للجليد، وكان في الرأس فارقيطة بأربعة وعشرين مدفعاً ومنجّه بالبومب، ونشرت هاتان السفينتان الشراع وعامتا في جبال من جليد بالاصطدام، وفتحتا فيه طريق للباقي، فانظر لحرب هذا الجليد مع الجليد، ووصول هذا المدد غيّر الأمر وقوّى الحصار، لكن القيصر أخذه القلق وذهب بنفسه في ١١ حزيران، ووصل في وقت ما عرف حاكم القلعة أنه لا يقدر على المقاومة، ووصول القيصر أعجل الأمر، وفصـل النـزاع، ودخلت عسـاكـر بري أوبـرارانسكي القلعـة ظافـرين، وأعـطى لإبراكسين جزاءً على ذلك نشان مارأندريا.

قلت: وقـد مررت عنـد رجـوعي من هلزن فورس على بورغـو، وهي مدينة حسنة، يلوح فيها آثار العمارة، وبها سوق وتجار ومخازن ومضايف، وعلى فيبورغ وهي مدينة حصينة وقلعتها منيعة وأبنيتها بديعة تشابه مباني بتر بورغ، وبنحو ميل منها حديقة كبيرة تسمى «موت ربوس» للأمير نقولة، وقد قضيت فيها بعض ساعات أنيسة، ونظرت ما فيها من المصانع النفيسة، فمن ذلك البرج الظريف على خندق ١٠٦/ لطيف، ومن ذلك الصخور العظيمة التي فيها المغارات، وهناك حنفية ماء

باردة ومنارة عالية تنظر منها المدينة وعمود منصوب على أعلى نصبه الأمير نقولة أثراً لبعض بلدياته الفرنساوية الذين جاؤوا الروسيا، وحماهم القيصر اسكندر وأكرم مثواهم، وفي المدينة تل من الصخر عالٍ صعدته، ورأيت فيه حجراً كبيراً منقوش على سطحه « ПЕТР » يعني بطرس الأول، لأن بطرس لما وصل، صعد على هذا الحجر ونصب خيمته، وعندما أخذ القلعة نقش اسمه، وكلا المدينتين الآن في حكم الروس، لأنهم دائماً في التقدم، وفي فيبورغ كحل مشهور باسمها يجلبه المسافرون، لذيذ الطعم، وبعض الخبازين في بتربورغ يقلده، ولكن شتان، فحق أن يقال له: «لقد حكيت ولكن فاتك الشنب»، وبنواحي فيبورغ فوّارة ايمترا، وهي فوارة عظيمة يتصاعد فيها الماء بقوة عظيمة، لم تزل أعجوبة للمسافرين ونزهة للناظرين، وقد رأيتها فكانت صيقلاً لبصري وقرة لنظري، وينحدر الماء من أعلى الصخور من محل متسع كالبركة إلى مضيق بين الصخور، وبالجملة ففي الفينلاند ينابيع وفوارات رأيت بعضها، ولكن هذه الأحسن والأعظم، و«كل الصيد في جوف الفرا»، ومن قوة الماء تتصور بصور شتى، أحجار تبيعها الصغار مع جدتها كانتيكة المصريين فيشتريها السياحون، وربما هاودوا بها والتهادي قد يكون بالأشياء التافهة لغرابتها وندرتها، ونزلت هناك من سلالم من خشب عدتها خمسون درجة، ومشيت بقرب الصخر حول درابزين، ووصلت في الآخر إلى كشك لطيف، وهناك مضيفة جديدة، ذكر لي صاحبها أنها أُنشئت من مدة شهر ونصف، وهناك في الأعلى قصر صغير ومجلس، وكثير من الناس الزائرين يكتبون أسماءهم في الكشكات تاريخ زيارتهم، وقد فعلت مثلهم ١٠٧/. وعلى ذكر الفوارات، فنذكر الفوارات الموجودة في بترغوف بقرب بتر بورغ، يسكن فيه القيصر وعائلته في الصيف قبل الذهاب إلى «تسارسكيا سلو»، وهو مشتمل على عيون كثيرة وينابيع جميلة، بعضها يخرج من أفواه الأسود المصورة وبعضها من غير ذلك، وهناك في جميع النواحي من بستانه الكبير فساقي كبيرة تجري فيها العيون، وأعلى الفوارات فوراة سمسون أمام القصر القيصري، يرتفع فيها الماء جداً، ويقال إنه كان يرتفع في أيام القيصرة كترين الثانية إلى حِذاء سقف القصر.

وفي أوّل تموز ذهبت هناك وتفرجت على الوقدة التي عملت لإشهار فرح ولادة القيصرة، فما أحسنها من وقدة بين سطور الأشجار وبعضها خلال العيون، بحيث إن الماء يجري فوق القناديل الموقودة.

وفي ٢٧ حزيران، اليوم الذي فيه أخذت بولتافا، أُديت مراسم العبادة والشكر لله، وبعد ذلك نشرت في الميدان البيارق المأخوذة من فيبورغ، وبعد ذلك أُطلقت المدافع من القلعة والسفن، وفي المساء عُملت على النيفا حريقة وامتد العيد لما بعد نصف الليل، وأمر أن يشهر هذا العيد كل عام.

وفي ٣٠ حزيران زحف الرئيس بروس على كيكسهولهم، وأخذها ٨ أيلول، وبفتحها أطاعت كل مملكة كاريليا، فإقامة القيصر في بتر بورغ في سنة ١٧١٠م ما كانت إلّا أعياداً:

أولاً ـ بسبب تضاعف الفتوحات هذه السنة، فمن أول كانون الثاني قبل أخذ فيبورغ أخذ الروس البنيك، وفي ١٠ حزيران فتح شيريميتوف ريغا، وفي ٨ آب خضعت قلعة دونامونـد، وكذلك بيرنو في ١٥، وفي ١٣ أيلول كان حصار اينسبورغ وفي ٢٩ تملك باور من ريفال، وعلى هذا المنوال طاعت بلاد استونيا وليفونيا.

قلت: ١٠٨/وعند ذهابي إلى بلاد الفينلاند في سفينة البخار، أرسيت على ريفال ومكثت فيها نحو أسبوع، وهي بلدة قديمة وبيوتها كالحصون بناها الشجعان في قديم الزمان، وبها كنيسة لوتيريانية قديمة جداً، حتى إنها أشرفت على الخراب، لكن العمارة فيها ومنارتها عالية جداً، صعدتها ونظرات فيها المدينة والمنظر لطيف.

وفي هذه المدينة حديقة كبيرة للتفسح تسمى «كترين دال»، وفي هذه الحديقة بيت بناه بطرس الكبير، ورأيت فيه بعض آثاره من سفر وفرش إلى غير ذلك، وهناك قصر كبير بنته كترين الثانية، وفي وقت عبوري كان مُعدّاً لسكنى شاه زادة قسطنطين

وأخيه نقولة، ولدي القيصر الحالي.

ومن عجائب هذه المدينة التي ترغب السياحون في رؤيتها جسد الأمير دكروا، كان في زمن بطرس الكبير وخان، فغضب عليه بطرس وأمر بعدم دفنه فوضع في سرداب في الكنيسة لا في القبر، ثم وجد من نحو ثلاثين سنة متحجراً كالمومياء، فأبقي عبرة للناظرين وفرجة للمسافرين، ووضع في دهليز الكنيسة، وقد رأيته وجسده ناشف كالجلد ولونه باهت أصفر.

وثانياً ـ بسبب تزوج أمير كورلاند بنت أخت القيصر شاه زادة حنا، وذلك أنه في ١٤ حزيران جاء سفراء لخطبتها، والقيصر الذي يحب التعلق بباقي الدول، كان رتّب ذلك مع ملك البروسيا عم الأمير، وذلك أن بطرس لما أخذ بولتافا وهزم عساكر شارل ١٢، ما قنع بغلبة العدو خارج بلاده، بل أراد أن يهجم عليه في نفس بلاده ليتم له ما يريد من إراحة البلاد وصلح العباد، فذهب بهذا الصدد إلى البروسيا مارّاً على بلاد اللين، وطلب من الملك فردريك الأول المعاونة على السويد، لكن الملك لما لم ير في تلك المعاونة نفعاً لبلاده ١٠٩/حاول ومع ذلك ما منع مرور عسكر الروس على بلاده للهجوم على السويد، وعقد المحبة مع بطرس وأكدها بوعده أن يتزوج ابن أخيه بنت أخت القيصر، ولهذا السبب أعطى بطرس ولاية كورلاند للأمير متوارثة. ولما رجع إلى الروسيا مرّ على مدينة كورلاند، ولما وصل الأمير بنفسه إلى ريفال أهدى له مينتيشيكوف حجراً أزرق شفافاً عجيباً ثمنه ٥٠,٠٠٠ مجر وحصاناً تركية، وفراء ثمينة وتحفاً أخرى، وألفي برميل دقيق، واضطر الأمير بسبب الوباء الذي ضرب بلاد ليفونيا واستونيا أن يعمل كرنتينة قبل نارفا، وأمر القيصر بإعداد اللوازم لإقامته، وأرسل له خيمتين مزينتين و ٤٠٠ فارس لحفظه و ٥٠ لحراسة الموضع الذي هو فيه، ووصله هناك أوّل مكتوب من خطيبته، وفي ١٥ آب دخل بتر بورغ في موكب عظيم وقدمه بطرس إلى خطيبته وأمها وصار يراهما كل يوم، وبهذه الفرصة زادت الأفراح، ففي ٢٦ آب ذهب أهل القيصر إلى شليسبل بورغ لإشهار يوم القلعة.

وفي ٩ تشرين الأول عمل مينتيشيكوف ليلة رقص، وفي ١٠ عمل مثله الجنرال ابـراكسين، وفي ١١ عمـل مثله الأمير تشاركايسكي، ثم عمل قومٌ آخر في الأيام التابعة، وفي الآخر عمل مينتشيكوف ليلة رقص ثانية، ودام الرقص إلى الصبح، ومن ١٧ إلى ٢٣ صمم القيصر على رؤية كيكسهولهم، ولم تلهه هذه الحظوظ عن أفكاره، ولم تغيره الأفراح عن السعي إلى بلوغ أوطاره، وبعد أسبوع من رجوعه في ٣١ تشـرين الأول أشهـر عقد الزواج بغاية الفخر والطنطنة، وتفصيل ذلك طويل الشرح، وأمر بإعداد اللوازم المعتبرة، وهذا مع أنه كان يميل للتقشف والبساطة. وبنى بطرس في هذه السنة ١٧١٠م، في محل يسمى فيكتوري (يعني النصر) دير اسكندرنيفسكي، وهذا الدير كبير جداً، وهو في آخر الشارع المسمى نيفسكي بروسيكت.

١١٠/وفي عيد اسم الاسكنـدر كل الناس تذهب لزيارة ذلك الدير أفواجاً، وزيادة على القصـور والأبنية في المـدينة، أحدث القيصر قصوراً خارجها، فأوّل ذلك قصر كتيرينغوف باسم القيصرة وأهداه لها، وهناك آثار لبطرس وكتب وساعة، وغير ذلك. كل ذلك محفوظ إبقاءً لأثر هذا الرجل الفريد، وكاتيرنيغوف الآن من أحسن المنتزهات فيه قصور عديدة، وفيه جنينة كبيرة، تذهب الناس إليها للتفسح خصوصاً يوم الأحد، وفي أوّل أيار وخامس عشرة تذهب العائلة القيصرية كل سنة، والأول يوم مشهـود، كثير الـزحـام الفرح، لأن ذلك أوّل اخضرار الأرض وإشراق النبات، ثم يعمل الرخام بعد ذلك:

كالـبـدر لا يُرتـاد وهـو منـوّر وتـرومـه الأبـصـار وهـو هلال

ثم بنى في هذه السنة أيضاً في المدينة بيت للبوصطة لتقدر الواصلون أن تنزل فيه، ولا يضيعـون الزمن في تفتيش منزل، وكذلك رتب معاملاً للآجر قريبة من المـدينـة بحسب الإمكـان لغلو الآجـر بسبب بعد المسافة، ولافتراس الحريقة المتتـابعـة بيوت الخشب. وفي سنة ١٧١٢م، نزل من المنجرة بموكب عظيم،

الغليون الكبير المسمى بولتافا الذي ابتدىء فيه الشغل سنة ١٧٠٧م، ولا زال في كل سنة ينشىء وينزل سفناً عظيمة بمدافع جسيمة، خصوصاً في أيام أعياده وأعياد أهـل بيته، وقد رأيت إنزال سفينتين من منجرة بتر بورغ إحداهما باسم الإسكندر ولي العهد، والثانية باسم زوجته مارية، واجتمع الجم الغفير، ولكن ما أنزلوهما إلاّ عند حضور القيصر والعائلة الامبراطورية، وذلك سنة تزوج ولي العهد، ولا تعب ولا علاج في إنزالهما بل أزلقوهما مع قطع الخشب التي تسندهما تحت، فلما عامتا ذهبت هذه القـطع وعامت، وعند النزول ضربوا الموسيقى، ثم أطلقوا المدافع، وهاتان ١١١/ السفينتان كبيرتان، ومن مدة سنتين الشغل فيها.

وفي سنة ١٧١٣م حاصر القيصر بطرس هلزن فورس ثم رجع إلى بتر بورغ.
قلت: هلزن فورس دخلت في حكم الروس في أيام القيصر اسكندر، والآن تذهب إليها السياحون في الصيف لطيب هوائها وللاستحمام فيها، وقد ذهبت إليها صيفاً، ورأيت في مينـائها قلعة عظيمة في الصخر مشحونة بالمدافع، وأمامها صخور، وبينهما البحر، فمدخل الميناء مشابه لبوغاز الاستانة المحروسة، وأي مركب تقدر لا على العبور إذا لم يكن لها إذن، وهناك بارجة كبيرة مشحونة بالمدافع، وحين تمر السفن عليها تقد لإعطاء أوراقها، فما أحصن هذه المينا، ومرأى البلد لطيف، وهي جديدة العمارة على كيفية بتر بورغ في البناء، وتوسيع الطرق، إلاّ أن الممشى بهـا قليل، ولعله يصنـع بعد مدة، وفيها رصد على الصخر، وفيها مدرسة كبيرة عمـومية تسمى الأونيفـر ستيت، فيهـا مقعـد كبير فيه طاولات التلامذة موضوعة بالتدريج أعلى فأعلى، وفي صدره صور اسكندر الأول وعمود مكتوب فيه اسمه وتاريخ تأسيسه. هذه المدرسة سنة ١٨١٥م، وجميع ما في هذه المدرسة كان في مدرسة أبوه، فلما حرقت سنة ١٨١٨م، نقل كل ذلك إليها، وذهبت في البحر لرؤية قلعتها العظيمة المسماة، سينوى بورغ، ورأيت المدافع المرصوصة من كل جهة ثلاثة أدوار، وهي من أحصن القلاع، يقال إنها تشبه قلعة جبل طارق، وبهذه القلعة صهريج كبير لحفظ الماء العذب المتجمع في الأمطار، وحوله غدران من الأمطار،

وهناك منجرة ومحل للأسلحة كالسيوف والبنادق، وفي ميدان هلزن فورس عامود رفع تذكاراً لزيارة القيصرة اسكندرة هذه المدينة، وعليه مكتوب اسمها، وكذلك تاريخ زيارتها ٢٩ تموز ١٨٣٣م، فانظر لحفظهم آثار ملوكهم وتنويههم بشأنهم.

١١٢/وفي هذه السنة أمر بطرس أن كل البضائع البحرية لا ترسل إلى أرخانكيل كالسابق بل إلى بتر بورغ، وفيها زين كنيسة التثليث بناقوس كبير أخذته الدننما من مدينة أبو، وكذلك عدة كتب أخذت منها، وجعلت أساس خزانة كتب اكديميا العلوم، وفيها ظهر أول كتاب طبع في بتر بورغ، وهو كتاب إغارة عسكر الروس على السويد، وأخذهم منهم عدة حصون وقلاع وبلاد.

وفي هذه السنة في اليوم الذي يشهر لفتح بولتافا وصل الجي الفرس، وجلب معه هدايا للقيصر من جملتها؛ سباع وأنمار وفيل عظيم وهولندرية عجّب الناس، ولما مرّ على استراخان تبعه الناس بعض أميال من فرط التعجب، وكان للفيل كل يوم من الرز والزبيب والخمر ونحو ذلك ١٥ رُبلاً، لكن برودة الهواء ورطوبته في بتر بورغ خصوصاً في ذلك الوقت قتلت هذا الحيوان العجيب، ولكن حشي بالصناعة وعمل بقراً وحفظ إلى الآن، وكان قائد الفيل في العادة يقوده في الأعياد محلى ومغطى بالنفاسة عند الأعيان، ويصل له من ذلك مدخول عظيم. قلت: والآن في تسارسكيا سلو فيل من مدة سنين تذهب الناس للتفرج عليه، وسفير بُخارى الذي وصل سنة ١٨٤٩م حمل معه أيضاً فيله، لكن ما وصل إلّا في الصيف بعد موته هو في بتر بورغ، لكن ما دفن فيها بل حمله أصحابه والأمراء والأعيان سلكوا مسلك القيصر، والناس على دين ملوكهم، فبنى الأمير غاغارين حاكم سيبيري بيتاً عظيماً وبقربه بنى الأمير شانيروف وزوتوف وغيرهم، وأمر القيصر بعمل طريق مستقيم في خلال الغاب من الترسانة إلى دير مار اسكندر نيفسكي، وهذه الطريقة الطويلة العريضة سميت نيفسكي بروسبك، قلت: هذا لنيفسكي أحسن شارع في بتر بورغ.

١١٣/ولو كنت سحت الدنيا لأمكن أن أقول في الدنيا أوّلاً الطريق واسعة طولاً وعرضاً ووسطها مبلط بالحجارة وفي وسطها بلاليع لشرب ماء المطر، وما هول الحجارة من الطرفين مبلط بقطع الخشب المرصوصة بحسن الترصيف وعليها تمر العربات مسرعة كالطير لسهولتها. وحول الخشب المماشي العريضة المبلطة بالحجر الصوان لمشي الناس، وفي هذا الشارع المخازن اللطيفة والتحفجية والحلوجية والقهوجية والخياطون، لكن لا تظن أن ذلك كما في بلادنا، بل كل ذلك في غاية الإتقان والإحكام والفخر، وعادة الكبار التفسح في نيفسكي قبل الغداء خريفاً وشتاءً، فهو ملتقى الأحباب ومجمع الأصحاب، ومأوى الحسان ومرتع الغزلان، وفي وسطه خزانة الكتب القيصرية المحتوية على الكتب من كل جنس حتى من كتبنا، وفيها جملة مِن كتب موقوفة أخذت في حرب أردبيل، وقد نظرت هذه البنية العظيمة، وحسن وضعها وترتيب محال الكتب، ويجوز لكل من يريد المطالعة فيها أو الكتابة منها الذهاب إلى هذه الخزانة، إلّا أنه لا يباح نقل الكتب إلى محل آخر إلّا بإذن خاص.

وكم رأيت هناك زيادة على الأوروبيين من فرس وروم وترك يجيئون لنقل بعض الكتب أو قراءتها.

وفيه أيضاً التياتر الاسكندري وأمامه فسحة ظريفة وحديقة لطيفة، وفيه أيضاً السوق الكبير غوستولي دفور، وهو بنية عظيمة، مربع الشكل، يباع فيه كل شيء.

وفيه أيضاً بنية عظيمة أحدثت منذ سنتين وسقفها منير، وفي وسطها معبر لجميع الناس محتوية على مخازن عالية، فلذلك تسمى الباج يعني المعبر، وبالجملة ففيه ما فيه مما لا أقدر أن أفيه.

ثم عمل القيصر فبريق شمع من ناحية فيبورغ وسوقا في جزيرة بتر بورغ، وأراد أن السفن المتجرية ترسي عند السوق، ووصلت مركب تجارة من هولاند ١١٤/في الصيف، وهي ثاني مركب وصلت بعد تأسيس المدينة وسيرها القيصر بنفسه مثل

الملاح إلى الجزيرة ، وضرب صفيحة عليها نقش صورته لتذكار فاتحة التجارة الخارجية .

وفي سنة ١٧١٤م ذهب القيصر إلى ريفال لتأسيس المينا، وأخذت بيارق ومدافع من قلاع السويد وجلبت إلى بتر بورغ ، ونقلت المحاكم من موسقو إليها، وأمر القيصر بإحصاء بيوت بتر بورغ، فوجدت ٣٤٥٥، ووفد عليه سفير حاجي محمد بهادر خان أزبك، ثم سافر القيصر إلى كرونشتاد، وأطلقت المدافع في القلعة، وتبعه ٣٠٠ سفينة، وكرونشتاد مرسى السفن الكبيرة ومقام الدننما الروسية وميناها حصينة جداً، بحيث لا يمكن بها لسفينة العبور إلّا بالإذن، وكم فيها من سفن وبوارج بعضها من أربعة أدوار كبار راسية كالجبال بمائة وعشرين مدفعاً وأكثر، وهناك مدافع مرصوصة، وقد دخلت المدينة من البوغاز بعد أن جازوا الجواز، فوجدت أبنيتها كأبنية بتر بورغ إلّا أنها مثل ضواحيها، وبها كثير من بيوت النظام والبحرية، وبها ترسخانة أمامها فسحة كبيرة في وسطها صورة بطرس الكبير فاتح البلدان واقفاً على عمود وبيده سيف، وهذه الصورة مصنوعة في سنة ١٨٤١م، وهي محتشمة جداً وبها جنينة كبيرة تسمى «جنينة الصيف» لطيفة المنظر، فيها كشكات لطيفة، وفيها منظر عال، أمامه عمود أخضر عليه صورة رأس بطرس الكبير بتاريخ ١٧٠٣م، وصعدت هذا المنظر، فرأيت منه البحر والسفن، وكان بطرس ينظر من هذا المنظر السفن الواردة .

وفي الجنينة فسقيتان كبيرتان مربعتان، في وسط كل زورق صغير جداً في غاية الظرافة بصاري لطيف، وهناك خليج مرصف لتعمير السفن تنزل فيه السفن المراد تعميرها ثم يوضع حاجزان من الطرفين ثم يخرج ١١٥/ الماء بالتو تعمر المركب، وحين تتم العمارة يرسل الماء وتطلق السفينة تجرى إلى البحر. وفي اليوم التالي سافرت السفراء ومن جملتهم سفير الخان وأعضاء المحكمة في سفينة، فأما القيصر فوصل بلا عائق، وكذلك السفن التي تبعته، وأما سفينة السفراء وأعضاء

المحكمة فمكثت ثلاثة أيام بلياليها بسبب شدة الريح الشرقي وغشومية الرئيس والمستعمل، ولبَخَت في الخوص وتعوّرت، وفي اليوم الثالث تضاعفت الصاعقة وأنذرت بالهلاك. وفي اليوم الرابع خلصت من الخوص بواسطة سفينة أخرى أرسلها القيصر لإعانتها، ووصلت إلى كرونشتاد، ومن العجائب أنها ما غرقت بالكلية، وبهذا الغرق مات بعض الناس، ومنهم الجي الخان الذي وجد نفسه أول مرة في البحر، وبعد الجزع والفزع والهلع، قَنِط وتغطّى ورَقَد على المطوبة (أي سطح المركب ينتظر الموت)، وأمر الملا الذي معه أن يدعو الله، وأن يقرأ عليه آيات من القرآن.

وفيها أمَرَ القليصر الحريص على زيادة عدد أهالي مدينته وتحسينها بأن يأتي إليها من موسقو وغيرها ٣٥٠ عائلة من الأعيان، كل يملك أوّلاً مائة نفس يبنوا لهم بيوتاً في المحال التي تعطيها لهم المملكة، وأمَر الأغنياء والملتزمين والتجار ونحوهم ببناء ٣٠٠ أخرى، وهذا الأمر ما أعجب كثيراً من المأمورين خصوصاً البيار (يعني المتلزمين الذي اضطروا إلى ترك مسوقو وطنهم العزيز وسكنى بلد جديدة بالكلية ليست مخصبة)، كما قالوا إلاّ بالدموع والمنتقعات، وقولهم هذا أذكرني قولي سابقاً:

أمر على ربعهم ساحلاً ... فأرجع من دمع عيني خصيبا
فوا عجباً لبحار الدموع ... وما أطفأت من فؤادي لهيبا

لكن بطرس لم يتفكر إلاّ في عاقبة وطنه السعيد، واستبدل الراحة الجزئية براحة العموم، وما فكّر في راحة نفسه، بل خاطر بها دائماً في المعارك، فذهب وحارب وأسرَ قبطان السويد إبرنسشليد مجروحاً بعد ساعتين من حروب خطرة سَفاكّة، وسطوات فتّاكة، وقتل من ٩٤٠ من السويد ٣٥٢، وأسرَ الباقون. وقتل من الروس ١٢٤ وجرح ٣٤٢، وأخذ هانكوت وجزائر الأند، ودخلت الروس أبو بلا عائق، وكتب القيصر إلى مينتيشيكوف يخبره بذلك الفتح، ويقول حقيقة إن في

هذه الحرب كما في حرب المعاقدين ضد فرانسا حبس جم غفير من جنرالات وفيلد مارشالات، لكن ما أصيب بهذه القارعة ولا رئيس دننما، فنخبرك بنصر مبين ما كان له نظير إلى الوقت، وأخذ عدة أماكن في هذه السنة من الفينلاند، منها مدينة قازا وقلعة نيسلوت، وبتملكها تمت إطاعة الفينلاند، ثم رجع إلى مدينته ظافراً، ودخل بموكب عظيم بعدما عاقه الريح ثلاثة أيام عند كترنيغوف، فلو كانت سفن البخار في زمنه ما كان انتظر ساعة، وكانت دبّرت عليه الأوقات، فما كان يفعل إذ ذاك، وبسبب هذا الظفر انتقل القيصر من رتبة الرئيس إلى رتبة نائب قبطان، وهنىء بذلك، وحصل له السرور بالظفر والاستحقاق الذاتي، فذهب إلى وسيلي أو ستروف في قصر إشراقة مينتيشيكوف للضيافة العظيمة التي عملها، وكان من جملة الحاضرين قبطان السويد إبرانسشليد، فقال القيصر للحاضرين مشيراً إلى القبطان، أنتم تنظرون بين أيديكم شجاعاً خادماً أميناً لملكه مستحقاً ليس فقط لإكرام شارل، لكن أيضاً لإكرامي، ومع أنه قتل من رعيتي كثيراً من الشجعان، لكن ما فعل في ذلك إلّا الواجب عليه، ويقدر أن يتحقق رعايتي له لا تنقص أبداً، فعند ذلك قام القبطان ورق قلبه، وبعدما شكر القيصر وعمل له التمني أجاب، وقال: أنا ما فعلت إلّا ما اقتضاه الواجب، وإن لم ١١٧/أ لاقِ الموت الذي طلبته في معارك الحرب فمما يسلبني الفكر بأن غالبي ضابط بحري متميز هكذا مثل أبهة القيصر، وإنني سعدت بالتماس أمانه وعفوه وإقرار بطرس الصادق للخصم، ضاعف مقامه في اعتبار الناس:

وما عبّر الإنسان عن فضل نفسه بمثل اعتقاد الفضل في كل فاضل

ويناسب أن يذكر هنا خطبة بطرس التي قالها بعد ذلك الظفر بمدة قليلة لما أنها تجلب العناية، وذلك يوم إنزال الغليون المسمى شليسبل بورغ من الترسانة ٢٨ تشرين أول، وهذا الغليون ابتدأته اليد التي تعرف القيادة بغاية الإصابة العقلية، وقادوم الشنان، تاج ملوك الدنيا، قال للسامعين: يا إخوتي، من كان يقدر

منكم من مدة عشرين سنة أن يتصور أن هناك على ساحل بحر بلطيق أن تغلب أعداءنا في دننما بنيناها بأيدينا وأن نسكن في هذه الأمكنة التي كسبناها باجتهادنا وشجاعتنا، هل كنتم تظنون في قليل من الزمن، تشاهدون جمّاً غفيراً من العسكر والنـواتية شجعـاناً مجربين من طينة الروس، ومدينة مسكونة ليس فقط بالأهالي المولودة في الروسيا بل بالمحترفين وبالأسطاوات والتجار والعلماء والغرباء الذين جاؤوا وتوطنوا بيننا، هل كنتم تظنون أن نعلم إلى هذا الحد أن نكسب تعظيم الأمم المنـوّرة. المؤرخـون نسبوا إلى الروم الشرف بأنهم كانوا مهد العلوم، لكن لما أجلاهم القضاء من بلادهم التجأوا إلى إيطاليا، ومنها انتشروا في كل الأوروبا، ودخلوا اللين ومـا وصلوا إلينا قط، بسبب جهل آبائنا، فبالنتيجة بقينا غارقين في ظلمة الجهل الذي كان غرق فيه، الغرماينا (Germanya) واللين قبل ظهور العلوم فيهم، وبـواسـطة اعتناءات الملوك العقلاء لهذين القطرين ما عوقوا في التمدن وتصدوا بنفسهم إلى نشر ١١٨/هذه العلوم التي الفضل فيها للروم بسبب القدم، وفي الآخر جاءت نوبتنا، والتمدن في هذا الوقت، وما بعد لا يجد عائقاً في وطننا بشرط أن تعاونوا مقاصدي بالخلوص والقبول وأن تقرنوا الاجتهاد والصبر بالطاعة والإذعان، وأنا أشبه تزايد العلوم بسريان الدم في جسم الإنسان، وأرجو أنها تمكث عندنا، وأنها تتقوى لتعود في الآخر بلاد الروم وطنها القديم، والكاشف أن الروس يخجلون الأمم المتمدنة يوماً، ويمكن في أيام حياتنا بتقدمهم في العلوم وحميتهم التي لا تنطفىء التي بواسطتها يستمرون على أشغالهم الشريفة ويرسمون اسمهم على قمة المجد المنيعة.

وهذه الخطبة التي أوحتها نفسه الكريمة الكبيرة سمعت بغاية الإنصات الديني وسببت حمية عمومية بين الحاضرين، ومن كان منهم يعترض على الملك لم يقدر أن ينكر حقيقة كلامه وعظم مقاصده ونفعها.

وفي ٢٤ تشرين الثاني من هذه السنة يوم عيد القيصرة، أحدث القيصر تشريفاً للقيصرة نشان كترين شكراً لها على أفعالها الجميلة للقيصر وللمملكة، وذلك أنها

أنفقت لسلامة القيصر والعسكر الروس كل ما كانت تملك من الجواهر، وأنها استمالت الصدر الأعظم حتى أذن للروس بمجاوزة حدودهم، ولهذا سمي ذلك النشان «نشان التخليص»، ومن حيث إن هذا النشان على اسمها، كانت أول من تقلد بحمالته، ثم بعدها شاه زادة حنا بتروفنا بنت القيصر لإشهار تزوجها، ثم تنقل القيصر إلى رتبة صاري عسكر، ثم قرت عينه برؤية رهائن الروس من اسلامبول.

وفي هذه السنة كتب فرماناً ٦ تشرين أول بعقاب النفي، وأخذ الأموال للخزنة لكل شخص بنى في غير بتر بورغ ١١٩/إلى وقت معين بيوت حجر، وهذا الفرمان ألجأ إليه حب القيصر لزيادة بلده المنشأة، وفي ٢٤ تشرين أول فرماناً آخر فيه أن كل سفينة تأتي إلى بتر بورغ لا بد أن تحمل معها بعضاً من الحجارة، بعضها ثلاثين وبعضها عشرين، وبعضها عشرة بحسب كبرها وصغرها، وكل عربة بضاعة أو أمتعة تحمل ثلاثة أحجار، والحجارة الآتية في المراكب لا بد أن تزن أقلاً عشرة أرطال، والآتية في العربات لا بد أن تزن خمسة، ومن خالف الفرمانات فعليه الغرامة عشرة كبيكات لكل حجر.

وفي ٦ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أنه لا أحد يسكن عنده شخصاً إلّا بضمان أو أوراق الشهادة، وهذا سبب كثرة اللصوص والمعاكسين الذين عاثوا في المدينة.

وفي ٩ تشرين الثاني فرماناً آخر أمر فيه أن يرسل من الأخطاط سبعة وثلاثين رجلاً من أهل الخبرة المجربين لأجل الجمرك وتفتيش المراكب، وبنى زيادة على الكنائس والبيوت التي أحدثت هذه السنة بيت لكونسلارية المملكة في غاية الترتيب، وحسب من جملة المستخدمين فيها تراجمة لستة عشر لساناً وهي الروسي والليهي واللاطيني والنيمساوي والفرنساوي والإنكليزي والهولاندي والدانيما رقي والإيطالياني والاسبانيولي والرومي والتركي والتاتاري والصيني والمنغولي والقلموقي.

وفي سنة ١٧١٥م اعتنى القيصر بتحسين المدينة واستعجال الأشغال الدائرة في عشرين موضعاً، وكان يلاحظها كلها بنفسه، فكان يروح من كرونسلوت إلى بترغوف ومن هناك إلى كراسني سلو. . الخ.

وفي أول هذه السنة أشهر عرس الأمير توزوف وكان عمره ٨٤ سنة وتزوج بعازبة عمرها ٣٤ سنة، وعمل رقص مسخرات، وأمور مضحكة مناسبة لذلك الوقت، وحضرت القيصرة وأتباعها والعائلة الملكية ونساء القصر في كسم غريب، وعقد قسيس عمره ٩٠ سنة، وقدم الخمر اختيارية لا يمشون إلّا بغاية الصبر، وقصد القيصر من ذلك فكهة سكان مدينته بمناظر عجيبة بين الأشغال الشاقة. وفيها أرسل القيصر سفيراً إلى بلاد الفرس لعقد التجارة، وفيها طلب قيصر الصين من الأمير غاغارين حاكم سيبيريا حكيماً، ومعه كل العقاقير والأشياء اللازمة لصناعته، وغاغارين لما استعجل بإخبار القيصر، اغتنم القيصر هذه الفرصة لعقد المحبة، وأرسل له طبيباً إنكليزياً كان في عسكره وأصحبه بمهندس.

وفيها ١٢ آب، وُلد للقيصر حفيد وسمي على اسمه بطرس، وأشهر فرح الولادة أسبوعاً، وأرسل القيصر إعلامات بذلك للغائبين عن المدينة، فكتب إلى شيريميتوف: «أخبرك أن الله أعطاني هذه الليلة عسكرياً شاباً اسمه كاسمي، وأترجاك أن تخبر بهذا الخبر الجنرالات والضباط، ومن طرفي إلى كبار الناس وصغارهم»، وكتب مثل هذا إلى فون هوفت، غير أنه قال: نواتياً شاباً وزاد، ولما كتب إلى صولتيكوف: أرجو الله أن أراه يوماً تحت البندقية.

وفيها أُسست أكديميا الملاحة وتلك قوتها ٣٠٠ من الأعيان، ومع أن القيصر سافر سفرتين لرؤية البلاد الغربية فنَفَسه حاضر، فلم تنقص الأشغال، وسفره ما كان إلّا لنفع وطنه، فإنه لما رأى نظام البلاد وبدائعها وحسن التمدن فيها، وتقدم العلوم ومنافعها أحب أن يقلد ذلك في وطنه ورعيته كما تراه في أخباره.

ومن جملة ما أسس من جديد قاعة التاريخ الطبيعي المزينة بجملة عظيمة من

الحيوانات والطيور والأسماك والحيوانات التي تعيش في البر والبحر والحشرات، وغير ذلك من أشياء الصناعة، اشترى القيصر البعض من الأجزاء؛ شيئاً بقيمة ١٥,٠٠٠ مجر، والبعض اكتسب من هولاند سنة ١٦٩٧م، وبقي في موسقو. وفي هذه السنة ١٧١٦م، كل هذه الأشياء جمعت في بيت كيكين، وضم إليها جملة من الأحجار المعدنية، ومن الودع ١٢١/اشتريت من العالم غوتفالد، وكتب عظيمة جلبها مينتيشيكوف من كورلاند سنة ١٧١٤م، وبعد سنة ضم أيضاً جملة كثيرة من هذا النوع كانت عند روش معلم القيصر التشريح، وبعد موته اشتراها القيصر من ورثته، ثم نقل ذلك إلى وسيلي أوستروف في المحل المسمى «كونست كامير» الموجودة فيه إلى الآن والمزدادة كل أوان، وهذا المحل قصر كبير محتوٍ على عدة أوضات واسعة توجد فيها كل أصناف الحيوانات والطيور والعصافير والحشرات والأسماك والمعادن والودع والملابس وغير ذلك، وفي كل سنة في الربيع تفتح لتفرج العامة فتذهب الناس أفواجاً لرؤية هذه العجائب ومشاهدة هذه الغرائب.

وفي سنة ١٧١٧م، حفر أربعة خلجان، ورجع فيها القيصر من فرانسا، وعرض عليه السويد إرسال وزراء مختارة من الروس والسويد في جزيرة الأند، لعقد الصلح الدائم بين الدولتين، فأرسل القيصر بالسرعة الكونت بروس. وفيها بنيت بالحجر كنيسة إسحاق التي كانت من خشب، وعمل لها قبة طولها اثنا عشر سجيناً، وناقوساً أحضر لأجله القيصر من أمستردام ساعة كبيرة دقاقة بقيمة ٣٥,٠٠٠ ربل خربتها الصاعقة سنة ١٧٣٠م.

وفيها أُهديت للقيصر كرة سماوية كبيرة جداً بحيث تكلفت مبلغاً جسيماً في نقلها براً من كيل إلى بتر بورغ أهداها له دوقة شليشبل هولستين لما عرف شغفه بالعلوم، وفيها ابتدىء في بيت لعب التياتر بمعونة شاه زادة نتاليا الكيسيفيا.

وفي سنة ١٧٨٠م قضية ابن القيصر شاه زادة الكسي القاضية، وذلك أن سلوكه المنحل ومعاندته لأبيه وعدم استحسانه لأفعاله، وهربه خارج الروسيا، كل ذلك

أغضب القيصر حتى هدد بحرمانه من إرث التخت، لكن لم يفعل ذلك الأمر بسبب أنه كان ابنه المتوحد، لكن لما ولد بطرس الثاني وَلَد الكسي أراد القيصر أن يفرغ وسعه في تذليل الجموح، وكان ذلك بلا طائل:

إذا أظهـر الـدهـر شخصـاً لبيبـاً ... فكـن في ابـنـه سيّءَ الاعـتقـاد
فلسـت ترى من نجيبٍ نجيبـاً ... وهـل تلد الـنـار غير الـرمـاد

ثم لما لم تنجح الوسائط اضطر إلى تهديده بالموت كالباغي، لكنه لما سمع ذلك أخذه الفزع، وملك قلبه الهلع، ووقع في حالة الغرغرة، وبلغت الروح الحنجرة، ولم تنفع اجتهادات الأطباء، ولا تسلية الأحباء المحققين له عفو والده، ولا رقة بطرس عليه في هذه الحالة، كأنه نسي عيوبه وأفعاله:

وإذا المنية أنشبت أظفـارهـا ... ألـفـيت كل تميمـة لا تنفـع

وفيها أمر بإحداث ضابط سياسي للمدينة، وترتيب كونسلارية السياسة، وقواعدها منحصرة في ١٣ نوعاً:

١ ـ الأبنية بحسب الأصول المقررة قبل.
٢ ـ أحكام شواطىء الأنهار والخلجان وحفظها.
٣ ـ السرقة.
٤ ـ النظافة وتعيين الأماكن لبناء القوارب المعينة لتجارة الوقود.
٥ ـ النظر في صفة البضائع المعروضة للبيع وثمنها وذرعها ووزنها.
٦ ـ رعاية النظافة أمام البيوت المسكونة وسوق السمك وحفظ القناطر.
٧ ـ فصل الخصومات والمنازعات بالسرعة.
٨ ـ النظر في مداخن البيوت والأقمنة والمستوقدات.
٩ ـ النظر في البيوت المتهمة والألعاب المحرمة.
١٠ ـ إمساك المساجين والهربانين والبطالين.

١١ ـ إلزام كل السكان أن ينهوا إلى السياسة كل الأشخاص التي تصل أو تسكن عندهم.

١٢ ـ الاعتناء بإمساك المؤذين وإطفاء الحريقة ووضع حاجز في طرف كل حارة، وإبقائه طول الليل.

١٣/١٢٣ ـ الاعتناء بنصب مسدّات في المدينة وأون [1] باشوات لحفظ السكون والترتيب العام.

وزاد القيصر بخط يده على هذه الأنواع.

١٤ ـ إسكان النظام في بيوت الناس أيّاً كانوا كباراً أو صغاراً.

قلت: هذه الأمور كلها مراعاة الآن بغاية الإحكام وألف شيء آخر، فالأبنية في غاية الإتقان، يبنى البيت الكبير بأربع أدوار أو خمسة في أقل زمن، وشواطىء الأنهار والخلجان مرصفة أحسن الترصيف، ولهم في كشف السرقة تفتيش حصيف، ولا تنفع عندهم حيلة السارق الظريف، والنظافة مراعاة، ففي الخريف والصيف، بكنس الطرق وتوصيل ماء المطر إلى البالوعات وإزالة الوحل والقاذورات، وتجديد قطع الخشب والأحجار بالرمل، وفي الشتاء والربيع بكنس الثلج وتنظيف المماشي منه، وربما توالى الثلج، فكلما سكن نظفوا وإذا جمد حكوه بالحديد، ثم رشوا عليه الرمل وكنسوه، فدائماً يمكن التفسح بسهولة، وأمّا طرق العربات التي في الوسط فلا تنظف إلّا في آخر الشتاء، وكذلك الأسطحة قبل أن تحلل شمس الربيع ذلك، فيكون البلل والوحل، وأما شمس الشتاء فلا تحلل الثلج بل الصحو والنشف غالباً عند شدة البرد، فكأنها تبرد كما قيل:

يوم تود الشمس من بردها ... أن أتت النار إلى قرصها

وكذلك القناطر في غاية المتانة والظرافة، وإذا حصل أدنى خلل أصلح في

---

(١) أون: عشرة، أون باشي: رئيس عشرة، الكلمة تركية.

الحال، وأمّا المداخن، ففي كل أسبوع يأتي الهبابون لتنظيفها لما أنها مظن الحريقة، وهناك محال يرصد منها الحريقة فحينئذٍ يولع فانوس لإعلام الناس، فيأتي المطفئون بالطرنبات وغيرها من آلات الإطفاء وأمرهم في ذلك عجيب، والفلقات والخفراء في كل حارة، ومن سكن في محل فلا بد من التعليم على تذكرة مروره. ولكل أحد تذكرة يغيرها في الغالب كل سنة، ويدفع شيئاً مخصوصاً، ولكل بيت بواب أو أكثر بحسب صغر البيوت وكبرها، ويمشي البواب أمام البيت في الليل بعصا يخبطها على الأرض، وفي البيوت الميرية زيادة على ذلك حراس وديدبانات، وللأقوات من طرف الضابط سعر مخصوص يكتب في الجنرنالات لتعرفة العامة، ومن طفف في الكيل أو الميزان فعليه الغرامة. والمجرمون يُقادون في السلاسل ويعاقبون على حسب جريمتهم، إلى غير ذلك من أنواع السياسة الدقيقة الباعثة على الراحة العامة، والسّادّة على المُؤذين كل طريق.

رجع وبعد ما رتب القيصر السياسة، شرع في الأمور المسلية للعامة والخاصة الذين يرتاحون إليها بعد التعب، وينسابون إليها من كل حدب، كي تنشطهم وتلين طبائعهم وتفتق أذهانهم للحكمة، ثم بعد هذه الملهيات تفكر أنه بقي عليه أيضاً تقريب الأعيان المفترقين بسبب الأوهام الموجودة، وذلك بأن يستميلهم للّذات اللطيفة التي ما عرفها الروس، بل ولا تصورتها قبله، وبأن يسهل التعلقات بين النوعين الذكور والإناث، وليس إلّا في أيام القيصر الكسي ميخايلوفيج أن النساء ابتدأت في تحلية الجمعيات، وأطلق لهن العنان قليلاً في الروسيا، لكن كل ذلك معارضاً بحجر الآباء والأزواج، فكُنَّ يعشن في الخَزْن بلا رجاء ولا حظ ولا مَيل بسبب حَجرهن في البيوت، فلم يبق لهن إلّا التأوه والملل والإطاعة الكاملة لأوامر الظالم البيتي التي هي في الغالب هوائية، والإرادات التي هي تارة عنادية، لم تغير شيئاً من معيشتهن بالسكون والهدف والصلاحي، حتى لو صدرت من الطاعن في السن الذي شابت ناصيته، فكان يكفي في ضياع صيت المرأة شابة من الأكابر أن تخاطب رجلاً، ولو بكلمة، وإن صدر هذا الذنب المدّعى من امرأة متزوجة حرمت

في الحال من رضى زوجها، فعلى هذا يمكن ١٢٥/أن تقيس ما يقال وما يظن فيمن تعطي يدها لأول واصل وتتحدث معه وتمشي معه متفسحة في حضرة جمعية عظيمة، وهذه الهيبة بين الجنسين التي لا تتحد مع أنوار العلوم والتمدن المبتدأ بين أكابر الجمعية بسقت، وانكشفت بالتدريج رغماً عن اجتهادات القيصر، وعاقت أيضاً تحصيل مقاصده لكنه عزم على اجتثاث هذا الوهم، ولأجل ذلك كتب ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٧١٨م فرماناً لترتيب الجمعيات المجهولة إلى ذلك الوقت التي فيها يحضر الرجال والنساء، سواء وبيان ذلك كما كتب في الإعلام أن الجمعية تكون في بيت أياً كان بلا تضييق، فتأتي الناس ليس فقط من شان الحظ، بل من شان أشغالهم أيضاً، لأن كل واحد يجيء هناك يرى الأشخاص الذين يحتاج أن يكلمهم في الأشغال، ويتعلم منهم الأخبار الواقعة، فقصارى الأمر أن الناس تذهب هناك للتسلي وقبل استعمال هذه الجمعيات عمل القيصر قوانين لترتيبها، وها هي:

١ ـ إذا أراد شخص أن يعمل جمعية، لا بد أن يعلم الأشخاص الذين يجيئون رجالاً أو نساءً بالكتابة أو غيرها محل الجمعية وأن يجيئوا إن يريدوا.

٢ ـ الجمعية لا تبتدىء قبل أربع ساعات أو خمس بعد الظهر، ولا تمتد بعد الساعة عشرة.

٣ ـ صاحب البيت ليس مضطراً إلى ملاقاة المعزومين ولا توصيلهم ولا تحيتهم وموانستهم، بل بقدر أن يغيب بلا لوم في وقت الجمعية بشرط أن يهيىء ذلك الأوض بالسّفر والنور اللازمين والمشروبات التي يطلبونها، وأن يضع على سفر مخصوص ما يلعب به كالورق.

٤ ـ لا تعين الساعات بل الضيوف يقدرون أن يجيئوا في أي ساعة شاؤوا بشرط أن لا يكون قبل ٤ ولا بعد ١٠.

٥ ـ يمكن التفسح واللعب في الجمعية بلا مضايقة ولا إضرارٍ لآخر، ١٢٦/ويمنع من القيام عنـد ذهـاب أيٍّ كان، ومن توصيله إلى البـاب، أو فعل التكلف والرسم، وفاعل ذلك يعاقَب بالنسر الكبير، وذلك أنه يلزم أن يشرب كاساً كبيراً عليه نسر، ولا يقبل الاعتذار، فبمجرد الإثم يصب الآثم ويحتسي فقط. يلزم الاقتصار عند الدخول على توطئة الرأس قليلاً للسلام على الجماعة.

٦ ـ يعين كل أنواع الناس الذين يترددون في الجمعيات وهم كبراء العساكر والأعيان وأصحاب الخدم الشريفة كلهم مع زوجاتهم.

٧ ـ الخَدَمَة والقواسة لا يدخلون داخل الأوض، لكن يمكثون في المدخل أو في محـل آخـر يعينه لهم صاحب البيت، وهذه الشروط ملاحظة في المضايف ونحوها إن أعطي فيها رقص أو ضيافة.

٨ ـ الرقص في أوضة، وفي أخرى يُلعب الورق أو الضامة أو الشطرنج، وفي ثالثة يشـرب الـدخان والسيجار، وفيها سفرات عليها الخمر والكبريت. . . الخ.
والقيصر كان يحب لعب الضامة، وكان ماهراً فيها بحيث يندر من يغلبه.

وأوّل الجمعيات كان عنـد ابـراكسين، ثم عنـد الأمـراء، ثم عنـد أهـل الاعتبـار. وفي يوم الجمعة يحضر رئيس السياسة يكتب أسامي الواصلين، ويجيء القيصر في الساعة ٦ مع القيصرة، وباقي العائلة الامبراطورية، ويفتح الرقص بالرقص الليهي ثم الإنجليزي، وضباط السويد كانوا متميزين في الرقص حتى إنهم زماناً طويلاً أعطوا دروس رقص لنساء الروس ورجالهم. وفي وسط أدوار الرقص تحضر الستات الشـاي والقهـوة وشـراب العسـل وغير ذلـك، وبعـد ذلك كانت العادة بإحضار الشوكولات وشراب الليمون، وذلك أن دوق هولستين فعل ذلك أوّلاً فاتبعه الناس، وهذا الدوق أوّل من أظهر لكبراء بتر بورغ حسن الموسيقى، وعنده نوبة أحضرها ١٢٧/من ويج، وما كان سمع إلى ذلك الوقت في الرقص إلّا أصوات الطرنبيطة المصمتة والبوق ونحو ذلك، وكان ذلك حسناً يفقد الأحسن.

وفي الصيف كان القيصر يعطي الجمعيات في جنينة الصيف التي أنشأها على الذوق الهولاندي من عدة خطوط مستقيمة. وفيها حفر القيصر خليجاً بين النيفا وفولكوف دفعاً لخطر الغلّال ونحوها إذا أحضرت من طريق آخر.

وفيها أنشأ عدة مدارس منها مدرسة الأشغال المتعلقة بالبلاد الغريبة، ومنها مدرسة الحرب، وأحدث البوصطة على الخيل، وكرخانة الورق في دويدروف، وفبريقة بُسُط وأقمشة من الحرير والصوف والمقصب، ومعملاً للغزل فيه يشتغل ٨٠ امرأة فقراء وعجائز تحت نظارة امرأة من هولاند.

وهذا الغزل قوي ورفيع لا ينقص عن غزل هولاند، فأنت ترى كيف حوت المدينة في هذه السنة زيادة على الأمور النافعة اللازمة أصناف الفنون والحكم وأنواع التَرفّه والنعم.

سنة ١٧١٩م فيها أرسل القيصر رجلين عارفين، لكشف شبه الجزيرة «كامشاتا» التي تدفع الخراج للروسيا من سنة ١٧٠١م، ونعتها بالتفصيل، ولمعرفة هل آسيا ملتصقة بالأمريقا بلسان الأرض. وأرحَلَ آخر لمعرفة سواحل بحر كيلان بين استراخان واستراباد.

وفيها أمر في شهر آذار أن يكون أوّل نيسان كوميديا عجيبة، فأحطع الناس زرافات ووحداناً لرؤية اللعب، لكن بدل الكوميديا رأوا ألواح خشب مكتوب عليه بحروف كبيرة «هذا اليوم أوّل نيسان»، ففهموا وسروا بمباسطة القيصر لهم، كما يباسط الأب أولاده، وذلك أن العادة في هذه البلاد أن يلعبوا لعباً في شهر نيسان يسمى «سمك نيسان»، وذلك أن يخدع شخص آخر مثل يَدَسْى عندنا، وفي السنة السابقة فعل القيصر هذا اللعب بنوع آخر، وذلك أنه ذهب أوّل نيسان إلى بيت خشب قديم منفرد، وأمر ١٢٨/بإحراقه فسارع الناس والعساكر بآلات الإطفاء، فسره اجتهادهم وغيرتهم، وقال للجماعة مبتسماً منبسطاً: هذا أوّل نيسان، ثم وضع لهم براميل خمر وبوزة لإزالة فزعهم، واجتثاث هلعهم. وفيها غنموا من السويد

ثلاث سفن حربية، فشكر القيصر الله وصلى في كنيسة القلعة، ضربت صفيحة لتذكار هذا الفتح.

وفيها تحمل بناء تسارسكيا سلو وابتداؤها في سنة ١٧١٠م، ولم تزل تزداد بالسكان الآتية من النواحي ومن موسقو، ومن حيث إنها إقطاع القيصرة كترين عملت لها طريقاً عريضة، وبنيت فيها قصر بغير علم القيصر، وعندما تم عرضت عليه أن يذهب معها للتفسح، فلما رأى ذلك سُرَّ وانبسط، ومن ذلك الوقت صارت متنزهاً لسكان المدينة يذهبون إليها كل يوم، والآن زادت حسناً وجمالاً وبهجةً ودلالاً.

سنة ١٧٣٠م فيها غنم الروس من السويد ٤ فرقيطات، وأنعم القيصر أوّلاً على البشير بهذا الخبر برتبة قولونيل، وعلى الأمير غاليتسن الغالب بسيف وعصا مرصعة بالجواهر، وكتب له رسالة يشكره فيها، ورقّى رتبة معاونيه، وأعطى للضباط صفائح ذهب مضروبة لشرف هذه الواقعة، ولمن تحتهم صفائح فضة، وأشهر النصر بإطلاق المدافع، وبالصلاة في الكنائس شُكراً لله، وأمَرَ أن تدخل السفن المكسوبة بموكب عظيم إلى بتر بورغ، فدخلت وأطلقت المدافع لدخولها، وقيدت قرب كنيسة التثليث، ونصب هناك حرم من الخشب مزين وصور مختلفة لإشهار ذلك الفرح، وعملت في الليل حريقة أمام الكنيسة ووقدة في المدينة، وبقي الهرم مدة مملكة بطرس، وكان يسمى هرم الأربع الفرقيطات، ومع كبر المدينة يوماً فيوماً، وازدياد السكان وقتاً فوقتاً، وتكاثر الفتوح حيناً فحيناً، وتظافر العلوم والفنون آناً فآناً، فالمخالفة التي كانوا يحدثونها في كل وقت كانت عائقاً صعباً يتعب ١٢٩/ القيصر في قطعه، وثعباناً لسّاعاً لا بد من ضربه قبل لسعه، فمن ذلك الأوهام وأراجيف العوام، كما وقع في هذه السنة ١٧٣٠م أن فلاحاً كان يدعي الكهانة، وقال: إن في شهر تشرين يكون طوفان يغرق المدينة والسكان، ويرتفع على الشجر الموجود في القلعة، فصدّقه كثير من العوام، وجم غفير من الطغام

والتجار إلى أعالي بتر بورغ، لكن القيصر قمع الفتنة، ولما عرف المذنب حبسه في القلعة، وفي اليوم الذي ادعى أن يكون فيه الطوفان عوقب بالشدة، وأوصى الناس أن لا يصدقوا مثل هذه الخرافات والأوهام.

قلت: في سنة ١٨٤٠م قال بعض القسس مثل هذه المقالة، وكذّب الله أقوالهم، ولله در أبي تمام حيث حضّ على عدم سماع هؤلاء الدجالين فقال:

السيف أصدق أنباءً مِن الكتُبِ ... في حده الفصل بين الجَدِّ واللعب
بِيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشكِّ والرِّيَبِ

وقال آخر:

دع النجوم لطرقيٍ يعيش بها ... وقم لوقتك وانهض أيها الملك
إن النبيّ وأصحاب النبي نَهوا ... عن النجوم وقد أبصرت ما ملكوا

وكما وقع أيضاً في سنة ١٧٣٠م أن قوماً أهل سوء خدعوا الناس، فلما دخلوا كنيسة التثليث، وجدوا الدموع تجري من صورة العذراء، فقالوا: هذا دليل غضب العذراء على المدينة، وهموا بالخروج، وكان القيصر غائباً ذلك اليوم، وما قدر الكونت كالوفكين أن يُسَكِّن الناس، وخاف وخامة عاقبة هذه الحادثة، فكتب للقيصر، فجاء في اليوم الثاني، فامتحن صورة العذراء وكشف الحيلة، وانكشف المذنب، وعوقب، وأظهرت صورة العذراء فسكن الناس، وهذا كما وقع للمرحوم السلطان محمود خان ممدّن الترك في هذا الأوان، فإنه تعب كثيراً في قمع الأوهام حتى وضع قوانينه على طرف التمام، وبقيت بقايا نرجو أن تندفع ١٣٠/بهمة ولده مولانا السلطان خليفة الوقت والزمان.

سنة ١٧٣١م، فيها وصل خبر الصلح، ولذلك أرسل القيصر للأمير غاليتسن رئيس الدننما التي في فينلاند بترك الحرب في الوقت، وقطع العداوة والرجوع، وذلك الخبر جاء به أوبريسكوف في ذلك الصلح على أن أستونيا وليفونيا واينغرى،

وجـزءاً من فينـلانـد مع مدينة بتر بورغ للروسيا، ولما رجع إلى المدينة أُطلقت المدافع، ودقت الطرنبيطات، فظن الناس حصول واقعة غريبة، وسارع الكبار إلى فسحة كنيسة التثليث لرؤية القيصر، فأخبرهم بانقضاء الحرب وعقد الصلح. وبعد الصلاة صعد القيصر على منبر، وهو في لباس العرض متلقداً بحمالة مار أندريا، وسلم على الناس بالحشمة، وقال: «أسلم عليكم أيها النصارى الحقية، اشكروا الله القـادر الـذي أعـطانا وأعطى السويد صلحاً خالداً بعد حروب دامت إحدى وعشرين سنة»، ثم اغترف من برميل خمر وشرب على صحة الرعية، قائلاً: «أسلم عليكم يا أحبـابي الطيبين، أعاننا الله على تنفيذ مقاصدنا في الصلح لأجل نمو سعادة هذه المملكة، وتخفيف الأثقال التي حملناها من الحرب». ثم عرض أهل الحل والعقد على القيصر أن يقبل رتبة باش قبطان، فقبل ورقّى أوبريسكوف سفير الصلح إلى رتبـة الضـابط، ونشـر خبر الصلح في المدينة، ودارت العساكر في الحـارات متلفعين بشمـلات بيض، وفي أيديهم بيارق بيض مزينة بتيجان الغار الأخضر، وتبعهم الطرنبيطات.

وفي المـدينـة عدة أفراح وألعاب عامية، ثم في ٢٠ تشرين أول حكم أهل سنيات أن يترجى القيصر باسم كل الرعية، شكراً على سعيه الجميل أن يتلقب أب الـوطن وامبـراطور كل الروسيا وبطرس «الكبير» بسبب القوة والغنى وأنوار العلوم وتـوسيع الـرقعـة، التي كانت الروسيا بسببها ممنونة لاجتهاداته، وبسبب رحمته وشفقتـه ١٣١/واعتناءاته الأبوية وصلت رعيته باتباع أثره العظيم فقط إلى أعلى درجة من المجد بين العالم، فامتنع أوّلاً تواضعاً لكن الإلحاح القائم والالتماس الدائم ألجأه إلى القبول، وذلك أن الأسقف خطب في كنيسة التثليث خطبة في ذلك الغرض، أوّلاً مدح فيها بطرس وأفعاله، ثم دعا الناس إلى شكره والاعتراف له بما يليق بواجبٍ حقه وحرمته، فقربت كبار القسس من القيصر وشكره الكونت كالـوفكين من طرف الرعية على إخراجه الناس من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمجـد العام، وعلى إخراجها من العدم ونظمها في سلك الأمم المتمدنة، ثم

ترجى الكونت بعد ذلك القيصر أن يقبل الألقاب المذكورة آنفاً، ثم قال: «نحن لا نقدم لك باسم رعيتك إلّا ما تستحق الحياة، الحياة الحياة لبطرس الكبير، أب الوطن، إمبراطور كل الروسيا»، وبمجرد ما قال ذلك انطلقت أفواه الناس بذلك داخل الكنيسة وخارجها، ودقت الطرنبيطات والطبول والنواقيس وأُطلقت المدافع من القلعة والترسانة، فلما سكن الصدى رق القيصر بأعلى صوته:

«أتمنى أن كل رعيتي تعلم بالحقيقة ما فعل الله لنا مدة الحرب التي انقضت الآن وتبدلت بالصلح، نحن نلزم أن نوجه إلى الله شكراً صادراً من القلب، لكن مع اعتمادنا على الصلح لا يلزم أن نغفل صنعة الحرب، وألّا تقاسي الروسيا ما قاست الروم، فالمناسب لنا أن نشتغل في النفع العمومي، ونحقق المنافع التي منّ الله بها علينا داخلاً وخارجاً، لنخفف بها أثقال العامة»، ثم صلوا وقرأوا الإنجيل، ثم أُطلقت المدافع أيضاً، ثم جثا كل الناس وقرأ المطران الدعاء، ولما خرج القيصر من الكنيسة سلمت عليه كل الناس بأصوات متفقة «الحياة للامبراطور، الحياة لأبينا»، ودقت الطرنبيطات ١٣٢/والطبول والنواقيس والمدافع، وهو في قلب رعيته، يزدحمون حوله لتقبيل يده بغاية المحبة وانفتاح القلب، إلى أن وصل سنيات، وهناك نصبت سفرة لألف شخص، وبعد الوليمة المفتخرة كان التياتر، ثم الرقص في القصر، وعمل إنعام عام للعامة بإطلاق أهل اللومان والمحبوسين لغير قتل أو كفر، أو قطع طريق، ورفعت البواقي من سنة ١٧٠٠م إلى سنة ١٧١٨م التي كانت ملايين، وكذلك غرامات في كل مملكة الروسيا، وعملت للعامة وليمة مخصوصة، مركبة من ثور قمين ومزين، ومغروز فيه كثير من الطيور، وفي كل جنب عين واحدة، ينبع الخمر الأبيض منها، ومن الأخرى الخمر الأحمر، ثم بعد الرقص عملت الحريقة، ورتبها القيصر بنفسه، فأظهر أشياء عجيبة منها معبد بانوس وأبوابه مفتوحة ومنورة بعدة ٢٠,٠٠٠ نور مختلفة الألوان، وفارسان أحدهما يحمل على مجنه سلاح الروس، والآخر سلاح السويد تقاربا قليلاً من أبواب المعبد وتصافحا علامة الصلح.

وفي ذلك الوقت دقت الطرنبيطات، وأطلق ألف مدفع، وزادت الحريقة جداً، حتى كانت أسوار بتر بورغ والنيفا من اللهب، وعلى يمين المعبد ترس عليه تمثال الحق يفعص برجله جنية، وعليه مكتوب «الحق دائماً يغلب»، وعلى الشمال سفينة تاركة بحراً عجاجاً لأجل أن تدخل في المينا، وفوقها مكتوب «إنما الأعمال بخواتيمها»، ودامت الحريقة إلى ما بعد نصف الليل، ورجع القيصر إلى سنيات، وهنأ الجماعة شاربين الخمر، وامتد الرقص إلى الساعة الثالثة، ودقت صفائح من الذهب والفضة وجوزي كل مَنْ حارب السويد من الضباط والعسكر كلٌّ على حسب حاله، وأنعم القيصر على قبطان السويد ايرنسشليدا المذكور سابقاً بإعطائه صورته المرصعة بالماس، وأكرمه بتلقيه للوداع، وكتب معه كتاب وصية لملك السويد ١٣٣/على هذا النمط الواجب علينا أن نشهد له شهادة عادلة مخلصة أنه في الأشغال التي كان فيها أسيراً أبلى بلاءً حسناً، وأظهر الشجاعة التي لا تنتظر من أحد، وبالحقيقة استحق تعظيمنا، ومثل هذا المدح لا يكون بلا نتيجة، فلما وصل القبطان إلى وطنه بالكتاب رقّاه الملك إلى رتبة قبطان باشا، ثم لما أراد القيصر أن يشركه في الحظ والفرح أهل موسقو سافر في الجرار، يعني عربة الزحلقة مع عياله ومع عرضيين من الخفر لإشهار ذلك الفرح فيها أيضاً، ولا تظن أن كل ذلك يعوق عن زيادة الأبنية والعمارات في هذه السنة التي من جملتها معمل لتكرير السكر واصطبل كبير من الحجر للخيول القيصرية، ومحال للعربات الامبراطورية، وتكبير قصر الشتاء، وتأسيس أوّل مدرسة القسس إلى غير ذلك، وقد فاض النيفا في هذه السنة، و ١٠ كانون الأول وبلغ ٧ أقدام، و ٤ أصابع، وفاض الماء في الحارات وقطع العبور ومات بعض الناس، لكن ما هذا بأدهى وأمر من فيضان سنة ١٨٢٤م، فلنكتف عن تفصيل هذا بتفصيل ذلك، والحدث الأصغر يندرج في الحدث الأكبر.

سنة ١٧٢٢م فيها قضى القيصر جزءاً من السنة في أشغال حرب الفرس، وبنى أماكن خارج المدينة عن أوخته وحارة بكنيسة النجارين الذين يبنون المراكب.

سنة ١٧٢٣م فيها، وصل أميرا هيس هومبورغ أخوان، البكري عمره ١٧ سنة، والثاني عمره ١٦ سنة، وسألا الدخول في خدمة الروسيا، وقُبلا، وأُعطي لكل رتبة قبطان وجامكية ستة آلاف ربل في السنة.

وفيها ٢٦ آذار انسَرَّ أهل المدينة بفرح أُعلن أكثر من سائر الأفراح، وزاد به للسكان البسط والانشراح، وذلك أنه كان للقيصر الكسسي ميخايلوفيج زورقاً، وفي سنة ١٦٩١م رآه بطرس وهو شاب في قرية ازمايلوف، قرب موسقو، فولد ذلك في فكره عمل دننما في الروسيا، وبناء هذا القارب المخالف لبناء القوارب المستعملة إذ ذاك في الأنهار جذب ملاحظة بطرس وسأل عن أصل الزورق، ولما علم أنه يمكن أن يعوم ليس فقط بواسطة المجاديف، لكن ١٣٤/أيضاً بواسطة القلع ضد التيار، وحتى في الريح المخالف، اشتاق إلى وجود من يعرف أن يُسيره، فكشف في موسقو رجل هولاندي إسمه برانت، كان مستعملاً في أيّام القيصر الكسي في الفرقيطة المسماة «أرول» يعني النسر، المصنوعة لجماعة التجار الروسية على بحر كيلان، والمحترقة في سنة ١٦٧٠م تحت أسوار استراخان حرقها قاطع الطريق رازين، لكن برانت تخلص من الحريق، وذهب إلى موسقو، وآل حاله في مدة عشرين سنة إلى الفقر المدقع، والضنك الموجع، لا يعيش إلّا من صنعة النجارة، فأُخذ إلى بطرس، وعمَّر الزورق، ونصب فيه صارياً وقلوعاً كافية. وصار مقاطعاً لتيار لاوزا بمرأى القيصر المتعجب من هذا المنظر الجديد من شأنه، ومن ذلك الوقت صار برانت معلم بطرس الذي بالسرعة تعلم مسك الدفتر بالشطارة، وصرف أوقات البطالة في التفسح على أمواه لاوزا والبرك التي قرب موسقو. فانظر إلى هذه الحالة التي هي غير مهمة في ذاتها، لكن تولد عنها الفكر في عمل دننما صارت في حياة مؤسسيها سبباً لمجد الروسيا الأثيل، وتمدنها الجزيل، وعزها الجليل، وجولانها في البحار إلى البر الأبيض «ومعظم النار من مستصغر الشرر».

فلما تمّ الصلح المسبب لكل المنافع، والذي هو نتيجة هذه الدننما الظافرة في سافكات الوقائع التي هي ساعد المملكة، كما قال مؤسسها بحسن الملكة،

وبسببها قُلِّد بطرس نيشانات النصر الموقور، ولُقب بالامبراطور، وسُلِّمَ عليه باسم الكبير، والأب الخطير. لم يكتف القيصر بعد إعلان أيام الفتوحات الناشئة عن اجتهاداته المهمات بمجاراة مشاركيه، ومكافأة معاونيه، بل أراد أن تتذكر الذرية جالب هذه السعادة السرورية في زمان قليل بالنسبة لهذا الفتح الجليل، فأمر بإحضار الزورق من موسقو إلى شليسبل بورغ في ربيع سنة ١٧٢٣م.

١٣٥/بعدما استراح ٣٠ سنة، وفي ٢٨ آذار فخرت الدننما المزينة بأحسن زينة في النيفا، وأُطلقت مدافع القلعة، وأُرسلت الدننما عند ديرنيفسكي ومكثت طول النهار.

وفي اليوم الثاني، وصل القيصر في الزورق يسيره بنفسه هو وكالوفكين والرئيس سينياوين، ويتبعه ٩ سفن، فلما وصل الزورق أدنت السفن بنديراتها للسلام عليه، وضربت الطرنبيطات، وأُطلقت المدافع، ودقت الموسيقى العسكرية، وفي اليوم الثالث ذهب القيصر في الزورق، ورقى إلى المدينة، ولما وصل إلى المحل الذي فيه الأمير بديراسموليني رحبت القيصرة بهذا الزورق الذي هو أصل هذه العمارة الكبيرة، ثم لما وصل الموكب إلى مرسى كنيسة التثليث، أطلقت المدافع من كل طرف، وسلمت العساكر على الزورق بعمل شنك، ودخل القيصر والعائلة الملكية، وأعيان الدولة في الكنيسة للدعاء والصلاة، ثم خرجوا، وأطلقت لخروجهم المدافع، وعمل الشنك، ثم عملت وليمة في قصر سنيات في غاية النفاسة، ودام في كل هذه المدة الانشراح وشرب الراح، أوّلاً على صحة القيصر، ثم على شرف الزورق، ثم على شرف ذريته، يعني الدننما، ثم عملت الحريقة في الليل. بعد هذا الموسم بأيام وضع الزورق في النشف وما جرى «إن السفينة لا تجري على اليبس»، وحفظ قرب مرسى الكنيسة تخلف بعض الملاحين عن حضور هذا الفرح المتين غرمهم ١٥ ربلاً لكل سفينة.

ومنها طاب الهواء في نيسان وأيار وحزيران، فكانت الدننما كل أسبوع تجول

في النيفا وتتردد، وكان التفسح إذ ذاك في الزوارق من الحظ المؤكد إذ لا سرور في هذه المدينة أعظم من طيب الهواء وانقشاع الغيوم وابتسام السماء، وهذا الزورق مكث مدة عيد فيها، فلو كان له نفس ناطقة لكان مسرور البال، أو لسان منطلقة لأنشد بلسان الحال:

١٣٦/ أنا والله أصْلُحُ للمعالي وأمشي مشيتي وأتيهُ تِيها

وبالجملة فقد صدق من قال:

إنّي اطّلعت على الديار وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فتارة يحمل في قنجة وتدور حوله الدننما، وتارة ينزل فيه القيصر ويجدف بنفسه، وفي آخر الأمر عملت مسخرات أسبوعاً لإشهار النصر أيضاً، فانظر كيف اعتبر القيصر هذا الكثير المنعقد للروسيا، وما نزل الزورق في القنجة وعَامَ والدننما تشيعه حتى وصل إلى باب القلعة، وأُخرج إلى الساحل، وسُلّم لحاكم القلعة للحفظ فيها تذكرة للدننما، وهذا الفرح المصنوع لهذا الزورق كان كثير المصروف جداً، فالبارود المحرق وحده كان ثمنه ١٢٠٠٠ ربل، والقارىء يفهم عظم هذا المبلغ في ذلك الوقت، ومع أن بطرس كان يحب التدبير في المصرف، لكن هذا عيد أساس الدننما التي بها شرفه، ولذلك سمي هذا الزورق جد الدننما.

وفيها وصل سفير الفرس ومعه تبع ثلاثون نفراً، وأُطلقت لقدومه المدافع وشيعه العساكر إلى البيت المعد له وقبله القيصر، وكانت نتيجة هذه السفارة اعتراف الفرس بترك خمسة من أخطاطها للروسيا، وهي ضاغستان وشيروان وكيلان ومازندران واستراباد. ومن الأبنية في هذه السنة بيبت كبير من الحجر في وسيلي اوستروف لأجل المدارس، وهذه البنية أكبرها بني في هذه الخمسة والعشرين سنة، وهي موجودة إلى يومنا هذا دليلاً شاهداً على سرعة زيادة المدينة، وكذلك موجود الآن بيت بطرس الكبير، وقصر في جنينة الصيف، وكنيسة التثليث، وجزء من

أكديميا العلوم التي كانت قصر الملكة براسكوفيا فيدروفنا وتبديافلوسكي، وفيها كان مدخول المدينة ٥٨٠,٠٠٠ ربل، مدخول خمسة بيوت الآن، ١٣٧/وفيها مات الأمير بوتورلين، وحضر مشهده أهل القصر، وقبل إخراج جسده من البيت شرب الحاضرون على روحه كؤوس الخمر، وبعد الرجوع تغدوا في بيته وشربوا كذلك الخمر على روحه سنة ١٧٢٤م.

من أعظم الأبنية فيها أكديميا العلوم لتعليم أشخاص يكونون علماء في المملكة، ولتصنيف الكتب النافعة، وحل المشكلات، وكتابة الوقائع والتاريخ والملاحظات المتعلقة بالروسيا، وهذه الأكديميا تتركب من رئيس واثني عشر عضواً ماهراً في أنواع العلوم، وكاتب وناظر كتب وأربع مترجمين، واثني عشر تلميذاً، وعين للأكديميا ٢٤,٩١٢ ربل، ودعي كثير من العلماء المشهورين الغرباء للدخول فيها ليكونوا مِن أعضائها، وكان بعضهم على جناح السفر إلى بتر بورغ، لكن الله ما أذِنَ لمؤسس الأكديميا أن يعيش زماناً طويلاً حتى يرى مجلس فتحها الذي ما كان إلّا بعد وفاته ٢٥ كانون الأول سنة ١٧٢٥م، وذلك أن الأشغال الناصبة والحركات اللازبة أضعفت القيصر وأوهمت جسمه، وألجأته إلى أن يسافر أوائل نيسان سنة ١٧٢٤م إلى الماء المعدني في أولونيتز، كما هي العادة في مداواة المرضى بالذهاب وشرب الماء المعدني مدة من السنة، خصوصاً في الربيع، ونفسه المتعودة على الأشغال ما رضيت براحة البال، بل اشتغل في مدة هذا العلاج بخفة من العاج، وأرسلها إلى بتر بورغ في كنيسة القلعة، ثم نقلت إلى قاعة العجائب، ومنها إلى كونست كامير في الأكديميا، وحفظت إلى هذا الوقت، هي وعدة أشياء منسوبة جميعها إلى بطرس الكبير، ثم رجع القيصر من أولينتز إلى موسقو، وأشهر تتويج القيصرة بعده لأن الموت لم يُبق له ذَكَراً وارثاً للتخت، ثم رجع إلى بتر بورغ، وزار قصوره الحظية في بترغوف وغيرها، ثم لما أتم لقومه الصلح على أحسن الأنواع بعد الحرب الغول ذات الأوجاع، ١٣٨/وأراد أن يقدس في وجه عالمه الأرض التي اشتراها بلحمه ودمه التي كانت عرضة الخطوب ومعترك

الحروب، عزم على نقل عظام الأمير الكبير اسكندر النيفسكي من فلاديمير إلى بتر بورغ، ودفنها في الدير المبني بهذا الاسم، لأن هذا الأمير قبل ٤٨٠ سنة كان غلب السويد وتوج بالنصر، وعمل موكب عظيم لهذه الواقعة، وذهب العظام للقاء العظام من ٧ فرست من الدير، ووضعت السفينة التي أمسك القيصر دفنها، وشجعان دولته جدفوا إلى الدير، وأطلقت المدافع، ودقت النواقيس عند إخراج النعش الذي رفعه القيصر وأعيان الدولة، ووضعوه تحت قبة من القطيفة التي تعلقت بأهدابها الأمراء، والقسس شيعوا المشهد في لباس فاخر على القنطرة الجديدة المبنية بالخصوص على تشورن ريتسكه، يعني الخليج الأسود، ودفن بمرأى الخاصة والعامة في ٣٠ آب وأمر أن يشهر كل سنة هذا اليوم السعيد على الروسيا، وأن يقوم فيه الزورق الذي قدمنا ذكره آنفاً.

ومرض القيصر الذي ظهر عند رجوعه لم يزل في ازدياد طول هذه السنة، ولهذا ما فارقته الأطباء، ولما وجد بعض خفة في شهر أيلول عزم أوائل شهر تشرين الأول على الذهاب في سفينة لمباشرة أشغال خليج لادوغة مع منع الحكيم له، لكن لازمه. ومن هناك ذهب إلى معمل الحديد في أولوينتز، وطرق بيده صفحة جديدة وزنها ٣ بود، وهي محفوظة في كونست كامير مع مخلفاته، ثم رجع إلى لاختا في عشية مَطِرَة كثيرة الرياح، فرأى في البحر زورقاً آتياً من كرونشتاد وتلعب به الأمواج، وقف في الرمل، فأرسل لإعانته زورقاً، ولا زال مُتبعه نظره فلاحظ غلبة الموج للجميع وأخذته الرقة، فلم يقدر أن يبقى ناظراً بلا فائدة، ونسي مرضه وألمه واندفع في زورق، لكن الرمل منعه من القرب من الزورق الراسخ فترك في الماء ١٣٩/ إلى الحزام بلا حزم لفرط الرأفة وعوم الزورق وأذهب الرجفة، وهذه الرقة الأبوية والشفقة الرحمانية حركت ساكن المرض، وضاعفت الضعف والمرض، وألجأته إلى لزوم الفراش، وكانت سبباً لاختزام المنية وفراق المعاش، فلما ازدادت علته في ١٦ كانون الثاني سنة ١٧٢٥م، روجعت كل الحكماء الموجودة في بتر بورغ، ولكن إذا جاء الأجل بطلت الحِيَل:

كلُّ شيءٍ قاتــلٍ حين تلقــى أجــلَك

ثم في ٢٦ وجد خفة لإملاء بعض فرمانات، لكن في ٢٧ ثقل عليه العياء، وأراد أن يكتب لكن وقعت من يده الريشة وآذنت بدنو فراق المعيشة.

وفي ٢٨ انطفأ بموته شهاب الروسيا الثاقب، راجم شياطين الأوهام الكواذب، وخسف بدرها المنير بعد أن تكامل وتناقض حتى حلول المحاق وزاول:

توقـى الـبــدور النقص وهي أهلَّة ويبـدو عليهـا النقص وهي كوامل

وكسفت شمسها المنيرة في الآفاق، ففاضت عليها بسحاب الدموع المآق، فسبحان من لا ينفذ مُلكه ولا يبقى إلّا ملكه، له الحكم وإليه ترجعون.

الفَصْل الثالث

لمـا انتقـل القيصـر بطرس الكبير إلى الـدار الآخـره، وبقي اسمـه مخلداً ومفـاخـرة، خلفتـه في الجلوس على تخت المملكة المتينة زوجته كترين، وقد سلكت نهـج زوجها، فوضعت المملكة في أعلى أوجها، وبنت قريباً من مائتي مدينة، وملكت قريباً من ثلثي بلاد اللينة الحصينة، وبهذا السبب ما زادت في بتر بورغ من الأبنية ما يستحق التسمية، ثم جلس بعدها على التخت بطرس الثاني حفيد بطرس ١٤٠/الأول، وكان عاش طول عمره في موسقو، وقد أمر بعمارة بعض جزائر، وبني في شارع نيفسكي كنيسة للوتيريانين، واتخذ قصر مينتشيكوف في وسيلي أوستروف مسكناً له، وسماه بتسمية نوفويري أوبرازتسكي، والقيصرة حنا يوحانوفنه، وأظهرت رجحان بتر بورغ، وأبدت ذلك بأفعالها، واختارت لسكناها قصـر قبـطان الكـونت ابـراكسين على النيفا قرب الترسانة الذي أعطاه له القيصر بطرس، وبأوامرها أحيط بجدران من الحجر، لكن غير لطيفة، وبخندق عميق، ثم هدم بعدها، وبني محله قصر الشتاء، وهي التي أمرت بصنع الهلال الكبير المذهب

اللامع على برج الترسانة، وهذا الهلال يهتدي به من لا يعرف حارات بتر بورغ.

وفي زمانها أيضاً عمقت مويكه، وبني محل كبير للعسكر عند قنطرة ازمايلوف وبدل بيوت الخشب القديمة التي كانت ببيوت الحجر، وفي ذلك الوقت صدر الأمر العالي بأن في حارة مليون، وعلى الساحل القصري لا يبنى غير بيوت الحجر، ونقل بيت الأجزاء من القلعة إلى حارة مليون وزيدت عدة كنائس ببناء كنيسة الصعود التي سميت باسمها حارة فوزينسيكي، يعني «حارة الصعود» وصورت القيصرة بنفسها الحارات.

وفي سنة ١٧٣٧م، ما كانت تجاوزت بتر بورغ من ناحية الجنوب حدود فونتانكه التي لا تتميز بحسن الأبنية، وفي الجهة المسماة فيبورغسكي سترنا ما كان زيادة على معمل البوزة الهولاندي المنقلب إلى أكديميا الحكمة والجراحة إلّا حارتين أو ثلاثة، وكنيسة سامسون.

وفي ذلك الوقت كان الشغل دائراً في حارات وسيلي اوستروف المسماه الخطوط، وما كان جاهزاً حقيقة إلّا الأوّل وبتر بورغ القديمة، كانت كثيرة السكان، لكن جزيرة الأجزاء التي يغرقها من ١٤١/بتربورغسكي سترنا خليج كاربوف لم تكن إلّا خميلة عريضة غلباء منطقة مملوءة ليس فقط بالنباتات الغريبة والأوروبية، لكن أيضاً بالنباتات الآسية والإفريقية المحفوظة بغاية الاعتناء. ولم تزل القياصرة تعتني ببتر بورغ التي صارت تخت المملكة الجديدة، لكن بلوغها إلى هذه الدرجة التي نراها الآن من الفخر والنظافة والحس، اقتضى زماناً طويلاً ومالاً جزيلاً، وتعباً جليلاً، وذوقاً جميلاً، واليزابيت على الخصوص اعتنت بها، ففي أيام ملكها شادت كنيسة نقولة البحري المفتخرة بقباب مذهبة، ومنارة كبيرة للناقوس، وكنيسة الخلاص في سينوى على ساحل النيفا أمام أوختة عند حوش اسموليني دير التثليث للنساء، وكنيسة التثليث المشهورة التي بناها المهندس المشهور الكونت رستريلي، وهذا المعبد الكبير بقي ثلاثين سنة بلا أبواب ولا شبابيك، وكمل بهمة

القيصر الحالي نقولة الأول. وهذا الكونت قد زين المدينة في أيّام القيصرة إليزابيت بقصر انيشكوف في ١٧٤٨م، وابتدأ قصر الشتاء في سنة ١٧٥٤م، وكمل في سنة ١٧٦٢م، بعد موت القيصرة، وفي سنة ١٧٥٥م، وضع أساس غوستين دفور يعني قيسارية التجار، ولكن أكلته الحريقة، وما كمل ووصل إلى المنظر الجديد الذي هو فيه الآن إلّا في مملكة كترين الثانية سنة ١٧٨٥م، وكترين هذه اعتنت جداً ببتر بورغ وكبّرتها وحسّنتها واجتهدت في فعل كل الوسائط التي صيرتها أول مدينة في الدنيا.

ففي أيامها، بلط ساحل النيفا بالحجر الصوان بغاية الإحكام والإتقان، وكذلك سواحل الخلجان، وعملت بالوعات في الحارات، ومهدتها بالتبليط اللطيف، وعملت لها مماش موصلة إلى القصور الخارجة عن المدينة، ولأجل إحياء هذه الطرق التي في وسط الغابات وتسهيلها، وزعت هذا الفضاء إلى الأبنية القريبة منه في كلا الطرفين إلى تسارسكيا سلو وستريلنا وبترغوف، وأبيات الصيف اللطيفة بحدائقها الظريفة وغدرانها الصافية، وعيونها الجارية، وأحدقت جنينة الصيف بدرابزين كبير، حسن الصنع، عجيب الوضع من السبع المعادن، وزينت بتر بورغ من ناحية ريغا بباب النصر العظيم، وزاد عدد قصور الخط ببافلوفسكي وغاشيتين، وبنيت ثلاث قرى نيمساوية حول المدينة ووضعت أثر البطرس الكبير ممدن الروسيا، وكتب عليه لبطرس الأول من كترين الثانية.

وفي مملكتها ازداد قصر الشتاء عظماً وحسناً ومعنى، وزين زينة خضعت لها الثريا، وهذا القصر العظيم، مربع الشكل قليلاً، وطوله ٦٥ سجيناً وعرضه ٥٠، وسمكه نحو ١٢، وفي وجهه الأصلي فرجة كبيرة جداً في الوسط مكشوفة، والدور الأول يسكنه الخدمة والمقدمون، ونحوهم وفي الدور الأخير مسكن الأعيان من الرجال والنساء الذين يسكنون دائماً في القصر، وفي الدور الوسطاني مقعد كبير فيه يجلس القيصر للسفراء وعمل الخدم والعبادات القيصرية، وهناك مقعد الرقص

ومقعد المرمر ومقعد جرجيس المزين برايات كل العساكر وبيارقهم، ومقعد التخت كان فيه تختاً عظيماً على الذوق القديم بأربع درجات مغطى بالقطيفة الحمراء، وهذا التخت يتركب من كرسي عظيم مغطى أيضاً بالقطيفة الحمراء وقبة مزينة بالتاج القيصري، وكل التاج القيصري الكبير مسبوك من العسجد، وفي خلاله القطيفة الحمراء، ومرصع بالجواهر وأعلاه مرصع بالياقوت الكبير كبراً خارجاً عن العادة، والتاج الصغير مرصع بالألماس ورأس قضيب المملكة ١٤٣/مرصع بقطعة ألماس كبيرة اشترتها القيصرة كترين الثانية من الرومي سافراتسيا بنصف مليون ربل فضة، يعني بمليون وثمانماية ألف ربل حوالة، لأن الربل الفضة في زمان كترين كان يساوي ٣ ربل، ٦٠ كيبك، والآن يساوي ٣ ربل و ٥٠ كيبك، وعبرة ذلك بالقروش الرومية ٩ ملايين قرش، لأن الربل يساوي ٥ قروش. والعسكرة القيصرية مرصعة إلى أكثر من النصف بجواهر ثمينة مختلفة النوع والمقعد الفيلدماريشالي مزين بصور الفيلدماريشالات الروسية الملقبين بهذه الألقاب، زادونايسكي وزيمنيكسكي وإبريفانسكي بسبب نصرتهم.

والمقعد الحربي، يعني مقعد سنة ١٨١٢م، وجدرانه مرصعة بصور الشجعان الذين حاربوا لأجل الوطن، وهو بين المقعد الأبيض ومقعد جرجيس متسع جداً، طوله ٧٧ ذراعاً روسياً، مقبب بغاية الصناعة، وفيه صورة القيصر اسكندر على الحصان الأبيض الذي ركبه لما راح باريس، وفي زمان كترين كانت التحف والجواهر القيصرية وخواتم الألماس والمنشقات الذهب المرصعة بالألماس والنشانات والرايات والشيش بقبضة ذهب، وغير ذلك في دواليب أبوابها من الزجاج موضوعة في قصر الشتاء، لكن الآن هذه الأشياء محفوظة في الأوضة القيصرية في قصر انيتشكي. قلت: قصر الشتاء هو محل إقامة القيصر وعائلته وحاشيته في الشتاء، وهو من عجائب الأبنية، وظاهره ليس محلى بالألوان كغيره من العمارات اكتفاءً بحسن شكله ولطف هندسته:

وما الحلى إلّا زينة لنقيصةٍ يتمم من حُسنٍ إذا الحسن قصّرا
فأمّا إذا كان الجمال موفّراً كحسنك لم يحْتَجْ إلى أن يُزوّرا

١٤٤/وفي أول كل سنة يفتح في المساء ويؤذن لعامة الناس ذكوراً وإناثاً بالدخول بأوراق أكثر من ثلاثين ألفاً، ويسمى ذلك رقص المسخرة، وليس في الحقيقة رقصاً، إنما هو تفسح، فتدخل الناس في المقعد الأبيض ومقعد المرمر وبعض مقاعد أُخر كبيرة للغاية، فما ألطف هذه المقاعد وأبهجها، وفي أركان بعض المقاعد أواني من الذهب وأشياء عجيبة وصور غريبة، وفي هذه الليلة يدور القيصر يتفسح مع عائلته، ويرى قومه كالأب الشفوف مع أولاده، ويكثر الزحام جداً حيث القيصر وعائلته، بسبب أن كل شخص يتمنى رؤيتهم، فهو حقيقة محبب في قومه لا يشبع من رؤيته، سواء كان في القصر أو غيره.

ومن جملة من يرى من الناس، الكرج والشراكسة التاتار في لباسهم الأصلي، وهناك بعض سودان من خدمة القصر، وكل من أراد الشاي، أو شراب العسل، أو بعض مآكل، ذهَبَ إلى المحل المعد لذلك وأكل ولا يدفع شيئاً، وقد أصابت هذا القصر عين الكمال فاحترق، وما قدروا على إطفاء النار منذ ١٣ سنة، لكن همة ساكنه القيصر الحالي أعادته إلى رفعته الأولى، بل أحسن في أسرع زمن، ومن مدة سنوات سقط سقف مقعد جرجيس، لكن عمر بالسرعة، وهذا القصر كالمدينة في الكبر والاتساع، وقد ذهبت عند بعض المعارف الساكنين فيه، فعددت مائة سلم، مع أن هذا ليس في الدور الأخير، والمحل المحرم دخوله مطلقاً إنما هو حيث يسكن القيصر والعائلة الامبراطورية، أمّا المحال الأُلاخر فكغيرها يجوز لمعارف سكانها أن تزورها.

وفي شهر أيار حين يذهب القيصر وعائلته لتقضية الصيف في تسارسكيا وبترغوف، يجوز الدخول بأوراق في مسكن القيصر والعائلة الامبراطورية للتفرج على هذه البنية العجيبة وما فيها من البدائع الغريبة ١٤٥/والذخائر اللطيفة.

وفي سنة ١٧٦٨م، وضع أساس كنيسة إسحاق، لكن غير هندستها القيصر اسكندر الأول إلى أحسن، ثم تلاه أخوه القيصر الحالي. وفي طول مدة أيامه والشغل فيها دائر، وهي الآن على طرف التمام بقبابها المذهبة العظام، شاهقة العلو والارتفاع، محكمة الأبنية والأوضاع، خصوصاً القبة الوسطى الكبرى، فإنها تكاد أن تنال الشِعرى، ولا يمكن لوصف أن يحدها لا نثراً ولا شعراً، بل بالعين وحدها بصحائف هذه المحاسن تقر حين تقرأ.

وفي سنة ١٧٧٠م ابتدأ قصر المرمر على النيفا وكمل في سنة ١٧٨٣م. وهو يتميز على الخصوص بأنه لا يوجد فيه أصلاً خشب، بل بمثابته دائماً المرمر والصوان والمعادن، وتبدل بهذه القصور والأبنية الحسان الصحارى التي أحاطت بالنيفا، وكذلك بني قصر الأمير ترويسكي الذي أسس دننما البحر الأسود، وفتح بندر أوجاكوف وضم القرم إلى الروسيا، وفي شأنه قالت كترين الثانية:

«هو وحده يفهم مقاصدي»، وغرس في هذا القصر جنينة الشتاء المعروفة الآن «بجنينة توريد»، حسنة للغاية حتى إنه لا يباح لكل الناس دخولها إلّا بورقة إجازة لئلا تفسدها لاعامة، وفي هذا القصر سكن خسرو مرزا حين أرسل سفيراً إلى بتر بورغ من طرف شاه الفرس، وعمل الأمير يوتومكين وليمة عظيمة لكترين، ولما مات يوتومكين أوصى بهذا القصر إلى كترين، وهي تشريفاً له سمت القصر قصر توريد، و كترين الثانية اعتنت أيضاً بإحياء العلوم والصنائع فشادت أكديميا التصوير على ساحل النيفا الشمالي، وأحسنت وضعها الذي بقيت عليه إلى الآن، وهي كبيرة شاهقة في العلو، فيها كثير من الصور البديعة، وفي كل سنة تزداد لاعتناء هذه البلاد بهذا العلم حتى ١٤٦/يسمونه الصنعة النفيسة، وأمامها على ساحل النيفا صنمان كبيران من الحجر يسميان أبو الهول، جلبا من مصر سنة ١٨٣٢م، وتحتهما سبعان من الحجر، فهما على الحقيقة مسلياني في هذه المدينة، إذ ليس من بلدياتي أحد غيرهما فيها.

وفي سنة ١٧٨٤م إلى سنة ١٧٩٠م بني على هذا الساحل أكديميا العلوم، لكن أقل علواً، وفي هذه الأكديميا العلماء الروسيون والغرباء ينتسبون إلى الأكديميا فيسمون الأكاديميين، وكل منهم مشتغل بصنف من العلوم، بعضهم بالرياضيات مثل بنياكوفسكي، وبعضهم بعلم المعادن مثل كوفر، وبعضهم بالعلوم الشرقية مثل فرين، فإنه مشتغل بالعلوم المتعلقة بالشرق من معاملات وتاريخ ونحو ذلك.

ودائماً يسافر الأكاديميون على مصروف الميري لكشف بعض الأشياء، كما سافر كوفر إلى سيبير محل المعادن، كما سافر بروس إلى تفليس لتحقيق تاريخ الكرج وآثارهم، وفي آخر سني مملكة كترين وضع أساس بيت مكتبخانة العمومية الحجري في شارع نيفسكي، وبنى التياتر الكبير الذي كان أوّلاً في سوق سنوي مزيناً لحارة الجنينة، مثل اللعبة ومحله صار القومبانية يعني مستودع المال والسلف بالمكسب، وبالجملة فكترين الثانية أكملت زينة هذه المدينة السامية، ورقت المملكة إلى أعلى درجة، وهمتها كانت بهمة الرجال مزدوجة، بل أعلى من همة الرجال، وحق فيها قول المتنبي، حيث قال:

ولو كان النساء كما رأينا لفضلت النساء على الرجال

ومع أن تملك القيصر بولص كان قصير المدة، لكن كان نافعاً لبتر بورغ، لأن هذا القيصر بنى عدة مساكن لطيفة للعسكر ولتعليمهم، وبنى في وسيلي أوستروف مدرسة البحارة، وكمل بيت تعليم الأطفال اللقطاء، ١٤٧/وبنى بيتاً لسقط العسكر في جزيرة الحجر، وبعض قشلات وبيوت لإيواء الفقراء الطاعنين في السن، وبنى قصراً عند جنينة الصيف صار بعده مدرسة المهندسين، وبنى في شارع نيفسكي محلاً للتجار يسمى «أومه»، وزينه ببرج مربع، وبلط ساحل مويكه في طول ١٥٠٠ سجين، وزين كثيراً شارع نيفسكي الذي كان إذ ذاك في وسطه بولفار، يعني سطور من الشجر لإظلال المارين، ووضع لجده الكبير بطرس الأول أثراً أمام قصره، وآثر

رومانتسوف في المرج القيصري، لكن نقل بعد ذلك أمام أكديميا التصوير، ومكتب كديت وأسس أيضاً أكديميا الطب والجراحة، ووضع لكنيسة كران الأساس وكملها بعده وارث تخته، وولي عهده القيصر اسكندر الأوّل الذي بنى الممشى على النيفا أمام جنينة الصيف، ونصب قنطرة ترويسكي قرب جنينة الصيف، ونصب في المرج القيصري أثر سوفاروف في سنة ١٨٠١م، ليس بعيداً من قصر المهندسين وقشلة للبحرية واينيستيوت كترين لتعليم البنات الأكابر، وعند شارع فوسكربسنيكي بنى كنيسة المصابين، ومن أعظم مبانيه قصر الوزارة، ودواوين الأشغال بقبوبه العظيم التي فوقها صور خيول، وهو عظيم جسيم يشتمل على أقسام منها: الديوان الأسنى، وهذه البنية العجيبة أمام قصر الشتاء وبينهما ميدان. وأما القيصر الحالي نقوله الأول، فإنه ما قصر عن سلفه ولا أبقى تعباً لخلفه، إذ قد صرف اجتهاده إلى ما يكمل المدينة والمملكة، فبنى تياتر ميخائيل وتياتر اسكندرة باسم زوجته القيصرة اسكندرة فيدوفنا ومجمع الأعيان، وقد عبث به بنان الحريقة منذ سنين، لكن تدورك الخطر وتلوفي الضرر، وبنى عدة حارات منها حارة مورسكوي وكارافاني، وأحدث بولفاراً جديداً في طرف حارة ١٤٨/غالدني، ومن أفعاله الجميلة تبليط شارع نيفسكي بقطع الخشب المسهلة لجري العربات، وأمره بقلع الأشجار التي كانت في ذلك الشارع وتبليط محلها ليتسع الممشى، وهذا عين الصواب، لأن هذه الأشجار كانت في الشتاء ثقيلة المنظر، مضيقة المعبر، وفي الصيف لا حاجة إليها في ذلك المحل، للاستغناء عنها بالبساتين، ونصب في الميدان أمام قصر الشتاء عموداً شاهقاً في العلو كله من الصوان المائل للدهمة أثراً لأخيه اسكندر الأول، وليس له في الدنيا نظير، وهو أطول من ٢٢ سجيناً، فهو أطول من جميع الآثار الموجودة في الدنيا حتى من عمود الصواري باسكندرية، والحجر الكبير جلب من بتر بورغ في سفينة مبنية له بالخصوص ١ تموز سنة ١٨٣٢م، وأخرج إلى الساحل ١٢ تموز، ورفع بإعانة عسكري الخفر الذي له صفيحة الفخر سنة ١٨١٢م، في ١٣ آب، وإلى نصف سنة ١٨٣٤م، حصل فيه الشغل والعمود كان أوّلاً مغطى

بالأشجار، وبعد ذلك هذا الأثر الباقي ظهر لكل عين في يوم عيد «اسم اسكندر» ٣٠ آب سنة ١٨٣٤م، تحفة سنية لهذا العيد الكبير وسحر يخطف أبصار الجم الغفير، وقاعدته أيضاً من الصوان، وعمل موكب عظيم حفل وعملت وقدة في المساء في الميدان، والحارات، ومن جهة قصر الشتاء مكتوب عليه الروسيا تشكر اسكندر الأول، وعلى أعلاه معلق صليب كبير، وصورة ملك ماسك الصليب بيده اليسرى واليمنى مشيرة إلى السماء، ويفعص برجله ثعباناً، وحوله الآن فينارات تولع بالغاز كل ليلة، ويحسن هنا إيراد القصيدة الفارسية التي قالها في هذا الأثر صديقنا وعزيزنا الجنرال ميرزا جعفر طوبجي باشا معلم اللسان الفارسي في المدارس القيصرية ببتر بورغ، وها هي مثنوي:

١٤٩/أزين درسكنتم كهي درستوه — كه يك قطعه سنكست اين ياره كوه

بكاخ سيهرش ستون ساختند — خردخيره كر دركه جون ساختند

جه كغتم بكردون ستون ك
رواست — مكر سوى افلاك راه دعا است

ازين به بمطلب نبا شدكواه — كه ما بشد ملك رابرش جلوه كان

بلى دربر هيكل اين ستون — ستون بيستونست وانن بستون

نه وهم شتابان وفكر يلند — برار دور اسرابز يركمند

نظر رابسرعت به يحشنى شودا — به ست يلبس برشده اين نشاره

شند جند جاتابا وجش رسته — بنام يكي ينوونوشين روان

بمهر برادر براوز مهر — جومهر فروزات بطاق سيبهر

برافراخت اين ناموريا دكار — برافرخت اين مشعل روزكار

بسي بك زدكرنشان جنين — نباز دبكيتي بساط زمين[1]

---

(١) وترجمتها: =

ومن مآثر هذا القيصر طريق الحديد التي حدث فيها الشغل من مدة سنين بين بتر بورغ وموسقو، وإلى الآن ما تمت وكذلك القنطرة المثبتة، وكان فيها الأشغال في مدة الجليد بدق الأخشاب في الجليد، والأعمال الشاقة، وقد تمت الآن، وفي أيام بطرس الكبير ما كانت على النيفا قناطر بالكلية، وكانت الناس تعدي على القوارب، كل شخص يدفع كيبك، وعلى مويكة وفونتانكة كانت قناطر نقالة يمكن رفعها، لكن لا يمكن أن يمر عليها أكثر من عربة بفرسين، وأمّا الآن فعلى فونتانكة ومويكة من كل جهة قناطر في أعلى ما يكون من الحسن والأحكام من الحجر الصوان والدرابزين الحديد الذي في غاية الذوق، وكذلك على جميع الخلجان والكل كالنيفا مرصع الحوافي بالحجر الصوان العريض، مرصف تمر على هذه

= تسيطر عليّ الدهشة أحياناً. . . ويمتلكني العجب.
مما يجعلني أتساءل أهو حجر واحد أم جزء من جبل. .
ذاك الذي صنعوا فيه عاموداً لقصر الملك،
عاموداً يحار العقل في كيفية صنعه.
ترى ماذا أقول لو أردت الحديث عن هذا العمود؟
يجدر بي أن أقول إنه طريق توصيل الدعاء إلى السماء
ولا أوّل على هذا من صورة الملك المنقوشة عليه والمتوجه لأعلاه.
أجل، إن هيكل هذا العمود يذكرنا بنفس بيستون
فعن طريقه يدرك ذوو الحجى ـ دون توهم ـ كيف تلحق الذلة بالأسرى. .
وترى العين على الفور دليل ذلك. .
حين تشهد الصليب وقد رفعته يد الملك.
لأكثر من سبب تم الاحتفال. . وقد جاء تخليداً لذكرى راحل عظيم
بالحب أحيا الأخ ذكرى أخيه، فكأنما بعثت الشمس أشعتها إلى قمر السماء.
لقد أحيا هذا ذكرى أحد العظماء
وأنارت هذه مشعل الزمان
وبفضله وبركته نرى ما نراه. . فما تتيه أرضاً دلالاً على الدنيا

القناطر العربات الكثيرة، وهناك قناطر صغيرة للمشاة وقدام القيصر سنة ١٨٤٠م، بتعريض قنطرة انيشيكوف مع انها ١٥٠/محكمة إلاّ أنه لاعتنائه بتحسين مدينته أراد تعريضها بعرض الشارع ليكون المنظر أجمل، ففعل ذلك ودام فيها الشغل نحو ٨ شهور، ولما فرغت أغلقت أبوابها، وقيل له: هيت لك، واجتمع محفل عظيم من الناس، ولما وصل القيصر راكباً في كاروصته فتحت له أول مرة، واستمرت مفتوحة إلى الآن، ووضع على أطرافها الأربعة أربعة خيول كل بقائده العريان، وقلت في ذلك:

وضعوا بأطراف القناطر إذ بدت ... خيلاً مصورة بأحسن منظر
كلٌّ يُقاد بسائس ما غُطيت ... بالدرع قامته ولا بمغافر
هذا دليل الخيل والرجل التي ... قويت بلا خوف جميع الأعصر
من يقوَ إن لم يرضَ مالك أمرهم ... أن يدخل الساحات أو من يجسر

وفي سنة ١٨٤٢م شرعوا في توسيع القنطرة الزرقاء، وفي ذلك الوقت كنت ساكناً في بيت أمام القنطرة، فكنت أشاهد الأشغال الشاقة المتوالية من دق أعمدة الخشب في الماء، ثم تنشيفه، وقد تمت هذه القنطرة، وسبب هذا التحسين أن هذه القنطرة أمام القصر المبني لشاه زادة الأمير الكبير مارية نيقولاونا الديني هو أيضاً من مآثر هذا القيصر، فأراد القيصر توسيع القنطرة لتتسع ساحة القصر، ولذلك هدموا بعض بيوت حائلة هناك بين القصر وبين كنيسة إسحاق، وبالجملة فمآثر هذا القيصر لا تحصى، ومحاسن تدبيره لا تستقصى.